رواية
خطأ واحد
ليلى الحيمي
دار أسرد للنشر الإلكتروني

خطأ واحد

ليلى الحيمي

ASRUD
للنشر الالكتروني

تأليف / ليلى الحيمي
تدقيق / علا عادل
تصميم غلاف: رانيا السفوت
تنسيق وتصميم داخلي: بسنت علي

© جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بنسخ أي جزء من هذا الكتاب بأي شكل من الأشكال وبأي صيغة أو التصرف فيه بأي أسلوب من الأساليب بدون إذن خطي مسبق من الناشر والمؤلف معاً.

الناشر/ أسرد للنشر الإلكتروني

الوتساب الخاص بالدار: 01113536610
البريد الإلكتروني:
asrud.for.e.publishing@gmail.com

إنَّ الآراء الموجودة في هذا العمل لا تعبر بالضرورة عن رأي دار أسرُد للنشر.

إهداء:

إلى الذين مازالوا ينبضون رغم أوجاعهم، ويكابدون مرارة الحياة رغم كل هذا التلاشي الذي بداخلهم، إلا أنهم مازالوا يقاتلون.

إلى الذين تخلت عنهم أمنياتهم؛ ليكابدوها بكل تفاؤل رغم تكبد يأسهم العميق في أنفسهم.

أنتم يا من زلتم على قيد الحياة، تنتظرون جرعة أمل أخرى توقظكم من ثنايا أوجاعكم، تُكتب هذه الرواية لكم؛ لتكون شاهدة على مدى صبركم، وقوة تحملكم لكل ما يجري لكم، وبالرغم من هذا تقتلون أوجاعكم بداخلكم حتى لا تصدر «آه» لغيركم، وتمضون رغم معاركم الطاحنة التي خضتموها مع الحياة، التي ركلتكم هي الأخرى كثيراً، وروضت أسوء ما لديها من البشر، ليكملوا الدور في صفعكم لتبقوا وحيدين ككل مرة، وبالرغم من هذا لا تستسلمون وتمضون، هذه الرواية ليست فقط عنكم أيها العظماء، أو عن تضحياتكم، بل أتت لتثبت أن الوجع يُخلف أحياناً وحوشًا كاسرة ضارة بالعالم أجمع تريد أن تُبيد كل من أمامها.

فأنتم بالرغم من كل أوجاعكم لم تتغيروا يوماً ما، أو تصبحوا شيئًا آخر عكس ما كنتم، بل أضحيتم مثالاً للجَلد والتحمل حينما تُصرّون على المواصلة رغم مرارة ما تمرونه.

فقد أثبتم للعالم أن هناك بذرة خير ما زالت تنبض من جديد.

وفي الجانب الآخر نجد من انغمسوا في ثنايا أوجاعهم، وصراع ذواتهم؛ حتى زلّت أقدامهم إلى وحل خطاياهم، فاقترفوا ما كانوا لا يريدون اقترافه، فلم يعد هناك مجال للعودة، فقرروا الخلاص بأرواحهم لينتهي كابوس أوجاعهم معهم وللأبد.

ASRUD
للنشر الالكتروني

استيقظ من سُباته بعد أن غطّ في نوم عميق، وعيناه ما زالت بها نوم عميق، كأنها تريد أن توبخه على استيقاظه، وهي بالكاد تُفتَح تارة وتغمض تارة أخرى، دون وعي منه لما يجري حوله، ليتثاءب بعد ذلك علّه بهذه الطريقة يهرب من النوم ويستيقظ، وبينما هو كذلك غطى على فمه بيده ليخفي أثر تثاؤبه ليلاحظ شيئًا غريبًا أنه مستلقي على حوض الحمام.

-آه يا إلهي! من جاء بي إلى هنا؟!

-ما هذا؟ ...دم من أين أتى، يا إلهي !، ما هذا؟ الحوض مليء بالدم. يا إلهي! هل مُت؟ ولكني ما زلتُ حي وأتكلم ...ما هذا؟

خرج مسرعاً من ذلك الحوض الذي تقزز منه كثيراً، حتى كاد أن يشعر بالغثيان منه فهو مليء بالدم، وكأنه استحمَّ في بركة دم وملابسه كلها برائحة الدم التي تستدعي القيء، إلا أنه أمسك نفسه، خرج وكاد أن ينزلق على أرضية الحمام المليئة بمنظر الدماء فيه، إلا أنه مسك بالباب قبل أن يقع، قرر

أن يغير ملابسه قبل كل شيء لكن كيف؟ وأين هدى؟ وماذا حدث البارحة؟ أين هو؟ هل هذا هو بيته؟ ظلّ يسأل نفسه تلك الأسئلة قبل خروجه من تلك البركة المليئة بالدماء، أو بالأصح من تلك الغرفة الوحشية التي بالتأكيد حدثت فيها جريمة لا يقبلها عقل، أو منطق فكيف بالنفس البشرية التي قد تتحول إلى شيطان مارد يريد أن ينقّض على كل من حوله؟ فقط لأنهم بشر وهو شيطان، فإذن هو مختلف عنهم.

ظلّ يتسكع في أرجاء البيت جميعها، علّه يجد شيء يدلهُ على هذا اللغز الغريب.

فجأة فتح باب غرفة نومه.

-هدى ....

-لا أصدقُ، هدى....

هدى... هدى... ... ظلّ يُرددها كثيراً، لم يصدق ما رأته عينه فهو أشبه بفيلم رعب، أو مسرح جريمة تمثيلية، ولكنها حقيقية هذه المرة.

-قولي لي من قتلك؟، أرجوكِ ردي عليّ هدى، أرجوكِ.. من قتلك؟ أرجوكِ...

يا إلهي كيف لهم أن يقتلوكِ وأنتِ ملاك بريء لم تؤذِ أحداً؟

-هُدى أرجوكِ تكلمي معي....اصرخِي، افعلي ما شئتِ، لن أغضب، هدى تكلمي أرجوكِ.

حاول أن ينزع السكين من أحشائها علّها ترد عليه وتخبره من القاتل، لكن بلا جدوى فقد شهقت روحها إلى السماء عند بارئها.

ظلّ يبكي كطفل يتيم فقد والده أو أغلى ما يملك.

-أرجوكِ هدى تكلمي، لا أستطيع العيش بدونكِ، أرجوكِ ردّي عليّ ...قولي شيء.

-ماذا أفعل يا إلهي؟! دُلّني، أرجوك.

وجد على معطفها شيء غريب، حاول أن يقرأه لم يفهم شيئاً، وكأنّها حاولت تكتب شيء، لكن ربما القاتل لم يُسعفها حتى تكمل كتابتها.

-مـا هـذا الـذي كتبتيـه هـدى؟ حروفـكِ مليئـة بالـدماء، لـم أفهـم شـيء، لقـد غرقـت بالـدماء، لكنـي سـأحاول أن أُبللهـا علـيّ أن أقرأها.

نهـض مسـرعاً وقبـل أن يـذهب لـدورة الميـاه، فكّـر أن المـاء رُبمـا قـد يُمحيهـا تمامـاً، ويجعلهـا ممحيـة، فحـاول أن يُلقيهـا علـى الشـمس علّهـا تجُـفّ؛ ليـرى مـا كتبتـه قبـل موتهـا، وبـالطبع كانـت الشـمس بسـطوعها القـوي؛ سـاعدته بـأن تُجَفّـف لـه تلـك الورقـة وبعـد ذلـك، حـاول قـراءة مـا كتبتـه، اسـتعان بمجهـرهِ الـذي كـان قـرب النافـذة، الـذي لطالمـا كـان يضـعه لقـراءة بعـض الأشـياء لكن دون فائدة، لم يجد أي دليل على القاتل.

-يـا إلهـي مـاذا أصـنع؟! أملـي الوحيـد لِأن أجـد القاتـل؛ لقـد ضـاع، كيف لي أن أجده؟، يا إلهي ساعدني!

ظلّ يفكر ويفكر لكن دون جدوى.

الـدماءُ تغطـي البيـت بالكامـل، والرائحـة تبـدو مقـززة للغايـة، وكـأنّ جـزاراً أتـى ليرمـي ذبائحِـهُ فـي كـل مكـان مـن أرجـاء البيـت، ولكـن هـذا الجَـزّار يبـدو عليـه أنـه بـلا رحمـة، أو حتـى

ذرة إنسانية، أو لِنَقُلْ أنه شيطان بهيئة بشر، ولكن الشيطان لم يعد محترفاً تماماً؛ حتى كاد أن يغلبه هذه المرة فالمستوى الذي وصل إليه عالٍ جداً، ليرفع في النهاية الشيطان راية الهزيمة أمام هذا الشيطان البشري؛ فهو أجدر بأن يُلقَب بالشيطان الحقيقي بدلاً عنه، كل شيءٍ كان مغطّاً بالدماء، كل جزء في البيت؛ حتى الأكواب الزجاجية لم تسلم هي الأخرى، فكان لها نصيب من ذلك الجزار، وكأنه كان يشرب نبيذه فيهم ويتلذذ، ولكنه ليس كأيّ نبيذ فهو نبيذ برائحة الدم ومذاقه، فالشياطين تتغذى على الدماء حقاً، ولا تعيش بدونه، تماماً كما نحن لا نستطيع العيش بدون هواء.

لم يصدق أنّ كل هذه المشاهد في بيته، يتمنى أن يكون كابوساً، ليستيقظ منه وينتهي وللأبد، حاول أن يغمض عينيه ويفتحهما؛ علّه يختفي هذا الكابوس الذي يشاهده في لحظته تلك، لكن دون جدوى، فمحاولاته جميعها باءت بالفشل، ظلّ عاجزاً لا يستطيع أن يصنع شيء، وكأنّ رجولته هذه المرة تريد خيانته، فما أقبح عجز الرجولة في المواقف الصعبة! لتصقلهُ هي الأخرى في دياجير الظلام الدامس، الذي لا

يعرف منه سوى الغموض والعتمة التي لا يوجد بها نور أو حتى دليل و مرشد.

ظلّ يبكي وينـدب حظه لماذا حدث كل هذا له؟، ومن هم أعدائه؟ رغم أنه طيبُ مع الجميع، ولم يؤذِ أحداً قط، فما الداعي لأذيته؟، من السبب ومن المسؤول عن هذا كله؟، ظلّ يسأل نفسه، ويبكي كعجوزٍ كهلٍ لا يفقه شيئاً سوى البكاء والنحيب، كان يودُ أن ينتهي هذا الكابوس المُفجع، وبينما هو غارقٌ في أفكاره يفكر في كل شيء، وذكرياته مع هدى وكيف كانا سعيدين مع بعضهما البعض، وقد قررا البارحة قبل موتها أن يُنجبا بعد فترة طويلة من زواجهما؛ لكن هذا الحلم تبَدَد وتلاشى سريعاً كغمضة عين، لم يُصدق أنّ هذا كله يحدث معه.

وهو مستلقي على هدى باكياً ينـدبُ حظه ويولول كالنساء قائلاً:

-هدى استيقظِي أرجوكِ من أجلي، استيقظِي، من أجل طفلنا الذي قررنا أن ننجبه ليلة البارحة، أرجوكِ استيقظِي، أرجوكِ من أجلي، آه يا إلهي ساعدني، ماذا أفعل؟

فجأة إذ بشخص يفتح باب غرفته بقوة ليتفاجأ قائلاً:

- مَنْ؟!

- سلِّم حالك.

.....

- بُني هل ستذهب للعمل؟

- نعم أمي، كالعادة.

- أخبرني، ما أخبار صديقكم ذاك المدعوّ ب « نادر»؟.

- مَنْ « نادر»؟

-ذاك الغبي الذي كنت تدعوه أحياناً إلى منزلنا مع «جهاد» صديقك.

- آه عرفته، ليس صديقي كثيراً؛ «جهاد» هو صديقي وتعرّفت عليه عن طريقه.

- سمعتُ خبراً عنه.

- مَنْ تقصدين؟

- نادر

- ماذا به ؟

- يقولون أنه أُعتُقِل في مركز الشرطة.

- أحقاً ما تقولينه أمي! لماذا أُعتقل؟

-لا أعرف التفاصيل، ولكن كلما سمعته أنه أُعتقل؛ لأنه ارتكب جريمة بشعة.

-أحقاً تقولينه أمي! ذاك الذي يخاف من ظلّه يرتكب جريمة، لا أُصدق.

-ولماذا لا تُصدق؟

-لو ترينه كيف يخاف من الجرذان والكلاب والقطط ستضحكين من تصرفاته الطفولية، وكأنه طفل لا يفقّه شيء سوى الخوف.

-وما يُدريك ربما يدّعي ذلك.

-لا أعتقدُ، يا أمي، من يدّعي ستظهر عليه علامات الادّعاء، « نادر» من الأشخاص الذين أعرفهم جيداً.

-ألم تقل قبل قليل؟ أنك لا تعرفه وعلاقتك جداً سطحية معه.

-نعم أمي، ولكني أعرف جهاد، ف « جهاد » هو صديقنا المشترك، ودائمًا ما يحكي لي عنه وعن تصرفاته التي تستدعي الضحك.

-على العموم يا بُني، لا تأمن على أحد حتى وإن كان غبيٌ أو ساذج.

-أنتِ تظلمينه، يا أمي.

-لا أظلم أحد ولكن هذه وجهة نظري، وأود أن أُحذِّرك؛ لأنك ولدي الوحيد وأخاف عليك من كل شيء.

-وإن قُلت لكِ «أنني القاتل».

- ماذاااا تقول؟!

-أمزح، يا أمي.

-ألم تقولي قبل قليل لا تأمن على أحد؟! وأنكِ تخافين عليّ؛ ولذلك تُحذريني، فأردتُ أن أُغيرَ وجهة نظركِ العامة عن الجميع؛ لذلك حاولتُ أن أُصَحِحها.

-غبي، ليس بهذه الطريقةِ، كِدتُ أن تجعلني أسقط أرضاً من الخوف، ففرائصي لم تعُد تحتملُ على الوقوف، آه منكَ أنتَ، ستُجلطني بمزاحك الثقيل هذا.

-لا، بعيداً عنك كل شرور العالم يا جميلتي المُدلّلة، فأنتِ أغلى ما أملك، سأحاول أن أتصل ب «جهاد»، رغم أنّ جهاد قد ابتعد عني كثيراً عندما دخل «نادر» حياته؛ فهو صديق طفولته المفضل.

-يعني ذلك أنك لم تَعُد على تواصل مع جهاد.

- نعم، لقد انشغل كلٌ منّا في حياته، كما تعلمين أمي، الحياة مشاغل.

- نعم يا بُني، صدقاً كلامُكَ، نحن نغرق في مشاكلها ومشاغلها وننسى كلَ شيءٍ فيها حتى أنفسنا.

- أجل، هذا هو واقعنا يا أمي، لقد برد الشاي، هههه، كله بسببكِ، أمي .

- بسببي؟!

- نعم، لكن الحديث معكِ جميل ومُسلّي ولا يُملُّ الواحد منه.

- كم أنتَ مخادع صغير!

- هههه، لستُ صغيراً، لقد كبرتُ.

- ستظلّ صغيراً، حتى ولو أصبحتَ كهلاً.

- ألهذه الدرجة لا تأبهين بمنظري؟!

- كفى، ستتأخر عن عملك.

- أوه، نعم كلامك صحيح، إلى اللقاء.

- رافقتك السلامة بُني.

.....

- أيقظوه هذا الغبي، فَمِن أول ما أتينا به أُغمي عليه، لم يدعَ لنا مجالاً لأن نحقق معه.

- أخاف سيدي، أنه أُصيب بسكتةٍ دماغيةٍ أو قلبيةٍ.

- أنتَ حقاً غبي، المجرمون لا يمرضون ولا يموتون.

- أحقاً! لماذا؟

- لأنك غبي، دعنا من أسئلتك الغبية، وأيقظهُ حالاً.

- كما تأمر سيدي، دقيقة واحدة فقط.

- لننظر، ماذا ستصنع؟

جاء بسطل ماءٍ باردٍ؛ ليُسكبه عليه بقوة دون أدنى شفقة.

– آه، ما هذا؟، أين أنا؟

– أنتَ بمكانك الصحيح.

– هيا.. أخبرنا، لماذا قتلت زوجتك؟

- صدّقني سيدي، لم أصنع شيء.

- ماذا تقول؟ كل ذلك ولم تصنع شيء.

- صدّقني.

- لماذا لا تريد قول الحقيقة؟ وتخبرنا ما السبب الذي جعلك تقتل زوجتك؟

- صدّقني، لم أقتلها.

- ربما أنتَ تريد قول الحقيقة بطريقة خاصة وفريدة من نوعها.

- صدّقني لم أقتلها، وإن كنتُ قتلتها سيدي، لماذا سأجلس في البيت معها؟! وأنا أبكي عليها.

- لا أدري؟، هذا الذي نريد أن نجد له تفسيراً وجواباً.

- صدّقوني لم أقتلها.

وبعد عدة محاولات فاشلة لإرغامه على الاعتراف، أمر كِبار ضُباط الشرطة بمعاملته معاملة خاصة لأنه يئس منه، ومن

عـــدم جـــدوى محاولاتـــه معـــه، فـــأمر أن يـــأتوا بـــذاك الرجـــل المتخصص في هذا النوع من المعاملة.

فـدخل رجـل يبـدو عليـه القسـوة والغِلظـة؛ فجسـمه يبـدو وكأنـه مصارع في حلبة قتال، ليفتح الباب بقوة ويقول للشرطي:

-دعه لي، سأجعله يعترف.

-تولّى أمره.

مضـــى كبيـــر الضـــباط والشـــرطيون، الـــذين قـــاموا باعتقالـــه؛ ليتركـوا المجـال لـذلك المعـروف بأنـه أشـرس مجـرم ومقاتـل فـي ذلـك السـجن، حتـى أن الشـرطة وظفتـهُ؛ ليُـدير حـالات الاعتـراف الصـعبة التـي يستعصـي علـى الشـرطة أحيانـاً القيـام بهـا، فقـد كـان معروفـاً لـدى الجميـع ب « الرجـل الأعـور» وكـأنهم يشـبهونه ب « الـدجال الأعـور» الـذي لطالمـا سـمعنا عنـه أنـه سـيأتي فـي آخـر الزمـان؛ ليُبيـد كـل شـيء حـي، وهـو أشـرُ خلـق اللـه، فقـد شـبهوه بـه لأنـه حقـاً شـرير؛ فالرحمـةُ لا تعـرف طريقـاً لهـا فـي قلبـه، فقـد أصـبح حجـراً وأسـوء مـن ذلـك، بـل دعنـا نقُـلْ أنـه شـيطانٌ يمشـي علـى الأرض، يتلـذذ بمنظـر القتـل والتعـذيب والـدماء، ويمـارس

كل ما لا يخطر على البال، أو حتى لا تدركه العقول البشرية والنفس السوية، بل وقد يُمارس التعذيب الذي يعتبره أفضل نوعاً عنده، فهو المفضل لديه ألا وهو، عند انتهائه من ضرب فريسته تبقى غارقة في دمائها فيقوم كثور هائج، فقط تحركهُ شهوته وغريزته لممارسة الرذيلة معها، فالدمُ عنده هو وجبته المفضلة، التي لا يستطيع مقاومتها أو كبحها، فيقوم بما لا تستطيع الحيوانات نفسها فعله، وهي التي قد غُيّب عقلها عنها، فكيف بهذا ولديه عقل كامل وبنية وصحة كاملة؟! يقوم بذلك الفعل الشنيع الذي تخجل الحيوانات من فعله، بل وتتقزز من منظره حين يُخيل إليها بأنها تمارس علاقة جنسية مع شبه ميت، فكيف بشيطان بشري يفعل ذلك؟!

أنّ النفس عندما تصل لمستنقع الرذيلة والانحطاط؛ تُغَّيب تماماً عن بصريتها، وتبقى وكأنها عمياء لا ترى شيء، فقط ما تراه؛ هو إشباع رغبتها بأي طريقة كانت، ومهما كانت حتى وإن كانت نتائجها سلبية على الطرف الآخر، فلا يُهم، ما يُهم؛ هو إشباع تلك النفس البهيمية من كل شيء وإن استدعى الأمر ممارسة الرذيلة مع ميت أو شبه ميت.

وعندما يصل الإنسان لمرحلة تشبعُ الألم المميت الذي لا رجعة فيه أو مفرٌّ منه؛ يلجأ الكثير منهم بقتل ضميره الحي، حتى لا يؤنبهُ في آخر كل ليلة، فهو ليس بمتفرغٍ للبكاء والعويل كالنساء، فلا بُدّ أن يكون قاسياً وجامداً، لا يحركه شيء سوى غريزتهُ الحيوانية، وكيف يُشبع نفسه التي لا تشبع أبداً؛ ليصل إلى ذروة الخُبث البشري، أو إلى مستوى الشيطانية وبدرجة امتياز جداً مع مرتبة شرف لما وصل إليه.

إن الإنسان عندما يصل لتلك المرحلة، فلم يَعُد يكترث بشيء ولا لشيء سوى لذاتِه، فذاتُه هي محور كل شيء، بل قد تصل به نشوة الكِبر والاستعلاء أنها محور الكون كله، وهذا ما نجده كثيراً ونلاحظه في زمننا الحاضر؛ حيث نجدُ أناساً وكأنهم مركز هذا الكون وما فيه، فنجدهم يتحكمون بشعوب، ويقتلون أو يأسرون شعوب، فلا يُهم، المهم إشباع رغبتهم في أن يصلوا للمجد الذي يدّعونه، ففي مخيلتهم عندما يصل الشخص لهذه النقطة من السيطرة والتمركز؛ سيخضع كل شيء لهم، كل شيء بلا استثناء، ونسوا تماماً أن هناك فئة قد تكون قليلة - نعم- لكنّها ما زالت تحاربُ هؤلاء وتقفُ صامدةً

بـوجههم، وإن كلّفُهـم - دفـع ثمـن ذلـك- حيـاتهم، فهـم يـرون؛ أنّ الحيـاة بـلا كرامـة لـيس لهـا قيمـة، فمـا فائـدة العـيش فـي هـذه الحيـاة وأنتَ مُقيدٌ أسير؟

لا تسـتطيع حتـى الـتّلفظُ بقـول «لا» لمـن تـراه عكـس اتجاهـك أو لمـن جعـل حياتَـك جحـيم لا يُطـاق، حينهـا قـد تكـون نهايتُـك أبديـةً بـلا رجعـة، أو يمـوت شـيء بـداخلك وتمضـي وأنـتَ تتـألم لموتـهِ، وكلمّـا حاولـتَ تـذّكره؛ أشـغلت نفسـك بأشـياء؛ لتغفـل عـن ذلـك، ولتدّعي أنه قد طُمِس وانمحى من ذاكرتك بلا عودة .

فهكـذا الكثيـر مـن البشـر؛ مـا بـين حـروب داخليـة وخارجيـة مـا زالوا يقاومون ويقاتلون حتى الرمق الأخير منهم.

.....

-آه يـا إلهـي، تعبـت كثيـراً مـن العمـل كـان يومـاً شـاقاً حقـاً، آه نسيت، سأتحدثُ مع جهاد، أتمنى أنه لم يغير رقمه

رفـع سـماعة الهـاتف واتصـل بـالرقم المحفـوظ فـي هاتفـه، لكـن لا إجابة أو رد.

-غريب، ربما غيّر رقمه أم ماذا ؟ يا إلهي، كم اشتقت له أنه حقاً شخص رائع، لم أجد شخص بإنسانيته الفريدة من نوعها، لقد ذكّرتني اليوم أمي بأعز شخص لديّ وكأن الأيام تجري سريعاً، يا الله كم اشتقتُ له حقاً، فهو الوحيد الذي يفهمني كثيراً.

ظلّ يتذكّر جهاد صديقه الذي أحبّهُ واعتبرهُ صديقه الوفي، ف « وائل » لطالما كان يحاول أن يقلِّده في كل شيء؛ لكنّه يعجز أمامه فهو شخصية حقاً نادرة ومميزة بكل شيء، طيب لأبعد الحدود، يحب مساعدة الجميع، يبتسم دوماً، رغم أنه يحمل الكثير من الهموم والأوجاع، فيحاول أن يخفيها عن الآخرين حتى لا يُزعجهم بذلك، بينما هو يستقبل همومهم ومشاكلهم بصدر رحب سواء، أصدقاء أو غرباء فصدره واسع للجميع، ظلّ يتذكّر أول لقاء جمعهما وكأنه يحدث الآن:

-مَنْ؟، تفضل بالدخول.

-سيدي المدير، هناك رجل يريد أن يُقابلك.

- مَنْ هو؟

-لا أعرف شيء عنه ولكنه يقول اسمه «جهاد».

-جهاد، من جهاد هذا لا أعرفه؟ وليس لديّ أصدقاء بهذا الاسم، دعه يدخل لنعرف ماذا يريد؟

- السلام عليكم.

-وعليكم السلام، من أنتَ؟، عفوًا.. قبلها، تفضل.

-شكراً لكَ، أنا اسمي "جهاد" من القرية المجاورة التي بجانبكم وتخصصي طب نفسي.

-اها، جميل.

- أريد أن أقدّمُ عندكم ملفي، إن كان هناك وظيفة شاغرة لي، فأنا أبحث عن عمل.

-لا أدري إن كان هناك وظائف شاغرة، لكن لا مشكلة لديّ، ضع مَلفك هنا، وإن توفّرت فرصة لدينا، بالطبع سنراود الاتصال بك، لا تقلق.

-شكراً لكَ، سيدي.

-لا داعي للشكر، لم أصنع شيئًا.

خرج "جهاد" وبعد نصف ساعة خرج معه "وائل"، كان جهاد جالساً على مقعد في الشارع ينظر للسماء، وجمال زُرقتها الخلاّب، والبحر الذي يعكس الجمال الرباني آنذاك، ظلّ يتأمل هذا الجمال الكوني الذي يُسحر الألباب والعقول؛ فينسى الواحد كل همومه وغمومه، عند رؤية هذا الجمال الطبيعي والفريد من نوعه، حتى وإن مكث عام وهو يتأمل لهذا الجمال، لن يكفَّ عنه أو يملَّ، فجماله لا تُمل منه العيون والقلوب معاً، وكأنّ المبدع الذي صنعهما لم يترك شيء للجمال وإلّا زيّنهُ بهما، ظلّ يغوص، ويتعمق في جمالهما فهو يحب التأملَ كثيراً، ليراه "وائل" وهو واقفٌ في نفس المكان الذي اعتاد أن يقف عليه بكثرة؛ لأنه يُذّكّره بذكرياته المؤلمة التي يتمنى أن ينساها، أو يُصاب بغيبوبة لتختفي من ذاكرته ولا تعود إليه تارةً أخرى، وقبل حتى أن يَتفوه مديره بأي كلمة، ركن السائق سيارتهُ، فهو قد اعتاد على ذلك، وكأنه روتينه اليومي أن يركن سيارته لسيده في ذلك المكان قبل عودتهم إلى المنزل، ومتسائلاً في نفسه: لماذا سيده ينزل كل

مـرة فـي هـذا المكـان؟ ويطلـب منـه عـدم إخبـار والداتـه بـذلك، فينفذُ ما يطلبهُ منه دون أي اعتراض.

كـان "وائـل" نفسـه يسـأل ذاتـه: مـرات عديـدة مـا الـذي يـدفَعُني كل يـوم قبـل العـودة إلـى منزلـي الـذهاب إلـى هـذا المكـان؟ هـل هـو جمـال الطبيعـة وسـحرها الـذي لا يُقـاوم؟، أم أن هنـاك ذكريـات مرتبطـة بهـذا المكـان، أحـاولُ أن أُيقظُهـا مـن سُـباتِها علّهـا تحـنّ وترجع إليّ من جديد؟

حتـى هـو تعـب مـن ذلـك الـروتين مثلـه مثـل سـائقه، إلا أن هنـاك ثمـة شـيء مفقـود بداخلـه يريـد أن يجـده فـي ذاك المكـان، هكـذا كان يُحدث نفسه.

-أنت مجدداً، أهلاً بك.

-أه المدير.. لست المدير، الآن أنا رجلٌ عادي.

-جميل هذا التواضع.

-ماذا تقصد؟

-لا شيء.

-هل تحب الجلوس في هذا المكان؟

-نعم ما بين تارةٍ وتارة، وأنت؟

-بالنسبة لي، أحب أن أطيل الجلوس فيه قبل العودة إلى المنزل.

-ولماذا؟

حبس "وائل" أنفاسه قليلاً وكأنه تذكّر أشياء لكن حاول أن يُخفيها عن جهاد.

-لا شيء، فقط أحب الطبيعة.

أجابه "جهاد" بإجابة؛ كانت هي السبب الوحيد الذي جعلته يختاره صديقًا أبديًّا له من بين مئات الأشخاص الذين يعرفهم، فهو رجل غني والكل يتمنى صحبته، ليس من أجل شخصه، بل من أجل المال الذي يمتلكه ف «وائل» من عائلة غنية مرموقة على عكس «جهاد» تماماً؛ حيث إنه رجل كادح ويبدو عليه أنه من أسرة متوسطة الدخل وبسيطة جداً وهذا ما دلّت عليه ملابسه الرثة والعادية.

-أتمنى ذلك.

-ماذا تقصد؟

-ما أقصده، أننا أحياناً نلجأ للهروب من واقعنا إلى ذكرياتنا، ربما ليست لأنها جميلة ذلك الجمال المبهرُ، بل وأحياناً لا تختلفُ تماماً عن واقعنا المتهالك والمتعب في أغلب أوقاتنا، فبالطبع هناك ذكريات مميتة قاتلة، لا نستطيع أن نُمحيها أو ننتشلها من ذاكراتنا؛ لأننا كلمّا حاولنا القيام بذلك اقتربنا من الألم ذاته الذي نريد الهرب منه، فتمزقَنا وتحرقنا من دواخلنا؛ لأنها أصبحت أكثر قرباً من أنفسنا، ولكن بالرغم من ذلك، أننا نستذكرها، ليس لأننا نستمتع برؤية أنفسنا ممزقة؛ بل لأننا نريد أن نستذكرها في الغالب، لأنها تذكرنا عند كل موقف صعب ومميت للغاية، كيف كنا نقاوم ونقاوم إلى درجة أننا اقتربنا من الموت تارات عديدة، وحتى الموت ذاته صار هو الآخر يتفاجأ من قوتنا، ونحن مع كل معركة نخوضها بدواخلنا كنا نفتش عن مخرجٍ من كل سراديب أوجاعنا وخزانة أحزاننا التي نموت فيها أكثر مما كنّا نحيا.

كانت إجابة "جهاد" ل "وائل" عميقة أعمق من البحار ذاتها، وكأنه وجد الإجابة أخيراً، التي طالما كان يُفتشُ عنها في ذلك المكان، وهذا ما جعله حقاً يختار "جهاد" صديقاً له، فكان نعم الصديق والصاحب، فقد أيقن تماماً أن "جهاد" لم تكن إجابته عابرة أو فلسفية بحتة كما قد يظنها البعض، بل أنها عن تجربة حقيقية وواقعية أكثر من الواقع ذاته الذي رُبما قد يكون مُزيفاً ونحن نحسبهُ واقعاً وهو خلاف ذلك تماماً، ف "جهاد" بالنسبة له، يشبههُ كثيراً وإن اختلفا في المقامات الاجتماعية، إلا أنهم يَحملان نفس الوجع ذاته.

.....

-لا تريد أن تعترف، أليس كذلك ؟! كم أنت متعب حقاً، سأكرر آخر مرة، صدّقني إن لم تعترف، ستندم هيا، سأعطيك ثلاث دقائق فقط، سأبدأ العدّ: واحد... اثنان،.... ثلا....، آآآآآآآآآه، ما هذا؟! رأسي....دم، يا إلهي!

سقط أرضاً مغشياً عليه، وهو ينزف دامياً، ولم يعُد قادراً على الحركة.

-سيدي كأني سمعت صراخ.

-انسى الأمر، دعه يتولّى مهمته، ليقضي على ذلك الأبله ويعترف.

-كما تريدُ سيدي، لن أعترض.

-من أنت؟ ماذا تريد؟ أنا لم أفعل شيء، صدقني.

-أنا أتيت لمساعدتك، فقد رأيتك نزيلاً جديداً في هذا السجن، ورأيت معاملة الشرطة لك وكيف تُعاملك بكل قسوة، فقررت أن أُساعدك، لأنك حقاً بريء، فأمثالك لا يقتلون.

-شكراً لكَ، ولكن كيف وأنا الآن مع الشرطة؟! وهذا المرميّ على الأرض، أنت الآن لم تساعدني، بل عقّدت المسألة أكثر.

-لا داعي للقلق، سأحلُ كل شيء.

-كم تريد من الوقت لتحل ذلك كله؟ وكذلك، ما اسمك؟

-سأقول لك لاحقاً كل شيء، لا تقلق، الآن دعني أنجز المهمة.

-كما تريد، لن أُزعجك، لكن من فضلك، بسرعة قبل أن تأتي الشرطة وتتهمني بأنني القاتل.

-لا تَخَفْ كل شيء سيسيرُ على ما يُرام.

خرج مسرعاً يحمل جثة ذاك المدّعو ب "الدجال الأعور" فهو الوحيد الذي تجرّأ على قتله، فقد أرعب الكثير من نزلاء السجن، إلا أنه هو الوحيد الذي أنهى قصته بكل جرأة وشجاعة فهو يستحق ذلك فما صنعه لم يكن قليل، فقد قتل مئات من نزلاء السجن بل الآلاف وأكثرهم أبرياء، لا ذنب لهم سوى أنهم وقعوا ضحية بين يدي هذه الحياة غير العادلة التي تظلم البريء في الغالب، وتحكم عليه بالسجن المؤبد وتدع القاتل أو المجرم يتسكع في الشوارع والطرقات، بل وحتى الأماكن المهمة والحساسّة والقيادية، فيُقلَّد بمناصبٍ وألقاب هو ليس بأهلٍ لها سوى أنه قاتل محترف، ومتسلّل على أرواح الأبرياء ليظهر لهم عكس ما بداخله، وكأنه ملاك بريء لا يصدرُ منه خطأ أو ذنب قط، هكذا انتهت قصة ذلك "الدجال الأعور"، فنال ما يستحقهُ من جزاء، لكن ذلك القاتل لم يهنئ له بال أنه يراه ميتاً بهذه الطريقة؛ فالميتة هذه كانت سهلة جداً عليه بدون أن يُعذب، كما عذّب الملايين من الناس، فقرر بحيلةٍ ذكية حتى يختلي بُجثته بعيداً عن الأنظار فأحكم

إغلاق باب المكتب بقوة، واستغلّ انشغال الشرطة في ذلك الوقت، وقام بأخذ علبة سيجارة كانت على المكتب الذي كان فيه، أخذها وأشعلها ودسِها على وجهه وهو يسبُ فيه ويلعن، أخذ يشوه كل بقعةٍ في جسمه، حتى لم يعُد له ملامح، علّه يستريح قلبه قليلاً من نشوة الانتقام الهائج الذي بداخله، وكأنّ بينهما ثأرٌ قديم، لكنه أحسّ أنّ هذا قليلٌ في حقه، فلابُد لهُ من عذابٍ مختلف ومميز عن غيره؛ فقرر أن يخلع كل ملابسه ويضربهُ وهو ميت، متخيلاً في عقله أنه يشعر بالألم، لكن في الواقع أن الموتى لا يشعرون، لكنه كان يُريد أن يُعذبه، حتى وإن كان لا يشعر بشيء؛ لينتقم لأولئك الأبرياء الذين عذّبهم، وقتلهم بكل وحشية؛ فهو يُمارس الوحشية ذاتها معه، علّه يذيق ويحسُ بما كانوا يشعرون أولئك الأبرياء، كان مع كل ضربٍ مبرحٍ وقاسٍ له يشتم فيه ويتمتم بكلمات، رغم أنه يعلم جيداً أنه مات فلا شعور يحسهُ أو ألم يتألمه، فقط كان يود أن يشبع رغبته الجائعة في الانتقام، والثأر له ولكل بريء مثله.

فكما قلت سابقاً: أن رؤية الدماء وهي تنزف من فريسته؛ تعتبر الوجبة المفضلة لمن وصلوا لمرتبة الشياطين البشرية وبامتياز عالٍ جداً، كان يراه ينزف من كل مكان لكنه كان لا يأبه لتلك الدماء، بل كان يضحك وهو مستمتعاً بتعذيبه، رغم أنه ميتٌ، لكن العقل عندما يغيب والضمير يموت، فلا لومٍ أو عتاب، لأنه لا فائدة من عتاب الموتى، فهم موتى لا يشعرون بأي كلام أو صِراخ.

.....

ظلّت الإجابة تلك عالقة في ذاكرته، فكيف لشخص بسيط ك "جهاد" يقول كلامًا أكبر من كلام الفلاسفة والعلماء ذاتهم؟، هو كلام واقعيٌ أكثر مما هو خيالي أو فلسفي.

لم يلبث يفكر كثيراً، إلّا وأتبعه بسؤال أثار حفيظته، وكان متأكداً أن "جهاد" سيجيب كما أجابه عن سؤاله الذي ظلّ يبحث عن إجابته، فلم يجدها إلّا عنده.

وقبل حتى أن يتفوه بأي كلمة فإذا ب "جهاد" يقول:

إنـك الآن ستسـأل ذلـك السـؤال الـذي لطالمـا سيسـأله الكثيـرون منك ألا وهو:

أحقاً نحن نريد ذلك أم أننا فقط نريد شيئاً آخر غير ذلك؟!

ليجيبه بإجابة كانت أقوى من قبلها:

-(أننـا أحيانـاً يـا صـديقي)، فاسـتغرب كثيـراً "وائـل" مـن قولـه « صديقي » وهو ليس بصديقه لكن جعله يُكمل ولم يقاطعه.

-أننـا أحيانـا يـا صـديقي، نلجـأ لقتـل أنفسـنا بأنفسـنا، ولكـن لـيس كمـا قـد يعتقـده الـبعض؛ قتـلٌ بالسـكاكين والانتحـار، ونـوع مـن المخـدرات أو شـرب النبيـذ أو قُـلّ حتـى جـرائم القتـل والاغتصـاب، وغيرهـا مـن أنـواع القتـل المعروفـة للهـروب مـن كـل مـا يـدور حولنـا ومـن واقعنـا المُـزري، إن قتلنـا لأنفسـنا، أشـد مـن تلـك الأنـواع بكثيـر؛ فقتلنـا مسـتمر بينمـا أولئـك الـذين قـرروا قتـل أنفسـهم بتلـك الأنـواع لقـد أنهـوا حيـاتهم مـن ذلـك الجحـيم الـذي يعيشونه والمسمى:

« بالحيـاة الـدنيا الزائفـة »، وأعلـم جيـداً أن إنهـاء حيـاتهم كانـت مسـألة وقـت دنيويـة، وقـد انتهـوا منهـا، ولكـنهم بالتأكيـد

سيكررون ذلك مرة أخرى في حياتهم الأخرى، فيستمرون في عذاب أبدي لا رجعة فيه؛ لأنهم قرروا ذلك العذاب لأنفسهم في تلك الحياة الأخرى التي لا يوجد فيها أي نوع من أنواع الظلم الذي نشاهده، أو قد لا يُخطر على بالنا كما في هذه الحياة المزيفة.

-صدّقني يا صديقي، أننا الآن نُعذّبُ أنفسنا بأنفسنا، نعلم أنّ عذابنا لها شديد، وهذا من أجلها؛ حتى تستقيم ولا تركن لتلك المغريات الزائفة التي تنتهي سريعاً دون شعور حقيقي بأنها دائمة وإن دامت لأعوام وأعوام، لكننا سنستريح كثيراً عندما ننتقل لتلك الحياة الأخرى الجميلة في عالم السماء عالم لا يوجد فيه أي شيء يؤدي إلى ألمٍ أو وجعٍ أو بكاءٍ، عالم خالٍ من الزيف والنفاق والوجوه المتعددة التي نشاهدها كل يوم، ونحن نعلم بنفاقها لكننا لا نريد صِدامها، هرباً من الويلات التي ستُلحقنا منها، أو قُلْ: لندعَ الخلق للخالق، فلم يعُد هناك طاقةً لتعديل أشخاص أو تقويم مسارهم، فهم راضون كل الرضا بما يفعلون ومستمتعون، فلا فائدة من اعوجاج لذيل الكلب وهو في الأصل أعوج، مهما حاولت تقويمه وتصحيح

مساره؛ سيظلّ أعوج، فهكذا بعض البشر مهما حاولت معهم ومهما نصحت لن يفيد شيء، فالحجر قد يخشع ويأنّ، لكنهم صمٌ بكمٌ عميٌ فهم لا يبصرون أو يفقهون.

-يا صديقي، إن قتلنا لأنفسنا بأنفسنا؛ هو فائدة لنا أكثر مما هو عقاب لنا، فيكفي أننا نعيش بضمير حيٍ يؤنبنا إن أخطأنا أو اقترفنا ذنب بقصدٍ أو من غير قصدٍ، فهو يقوّم مسارنا ويُصحّح اعوجاجنا؛ فنستقيم ونشعر بارتياح، بينما الآخر، وهم كثير جداً في زماننا هذا، لقد مات فيهم ذلك الضمير أو بالأصح هم من قتلوه، فقد كانوا يسمعون صراخاته وهم يحاولون قتله، لكنهم لم يكترثوا لصراخه، فقتلوه يوماً بعد يوم حتى اختفى من حياتهم تماماً.

.....

وبعد أن أتمَّ ما يريده من تعذيب له، أخذ يتنفس قليلاً ويشهق شهقاته التي يحسُ وكأنها الأخيرة في حياته، ألّا أنه يعلم أن الحياة ما زالت تريد منه أن يعيش؛ ليبقى حيّاً حتى يقتل أمثال هذا الدجّال.

استغلّ انشغال الشرّطة عنه، وخرج من الباب الخلفي للمكتب ليجد رجلاً كان هناك يبدو عليه بأنه هو الآخر شرطي، وضرب على رأسه بعصا حتى فقد الوعي، وأدخله للمكتب وجعله يمسك بالسكين، وقرّبه من جثة ذلك الدّجال؛ حتى إذا جاء الصباح يفهمون أنه القاتل لا غيره، وقبل أن يذهب تكلم معه قائلاً:

-إلى أين ستذهب وتتركني وحيداً؟، وأنا ماذا سأفعل مع هذين؟ والشرطة ستلصق بي التهمة، وستكون التهمة تُهمتين بدلاً من تهمة واحدة، الآن من فضلك، قل لي ما الحل؟

-ليجيبه على الفور، أن أراقب كل شيء عن كثب، وإن أصابك مكروه، ستجدني أمامك، وبالنسبة لهذه المشكلة، متأكداً أنهم سيلصقون التهمة بالشرطي لا بك، لا تقلق يا عزيزي، سأذهب قبل أن يحلَّ الصباح، والأفضل أن تنام فورائُك يوماً طويلاً، وأنا كذلك سأذهب، إلى اللقاء.

-إلى أين أنت ذاهب؟ انتظر، اسمعني، أريد أن أتحدّث معك، انتظر أرجوك..

ليدعُـه وحيـداً غارقـاً فـي أفكـارهِ وفـي المشـكلة التـي أُوقعـه فيهـا، وبينمـا هـو يفكـر إذ غلبُـه النُعـاس، ونـام إلـى أن جـاء الصـباح التـالي، فوجـد أشـعة الشـمس متسـلّلة مـن شـرفة نافـذة المكتـب، وكأنهـا تريـد مُعاقبتـه، ليسـتيقظ بعـد ذلـك، ويصـرخُ ليسـمعه الجميـع ويفـزع، ويـأتي بعـض الشـرطة ليتحسّسـوا مـن أيـن أتـى مصـدر الصـوت؛ فيكتشـفوا أنـه مـن المكتـب؛ الـذي تُـرك فيـه السـجين الجديـد الـذي يُـدعى "نـادر" مـع "الـدّجال الأعـور" كمـا هـم يسـمونه، فيفـتح البـاب الشـرطي بقـوة مُصـوِّباً المسـدس نحـوه، فيجـد دمـاء الـدّجال متنـاثرة فـي المكـان، والشـرطي الآخـر نـائم بجانبه، والسجين "نادر" مُرّتعد من الخوف وهو يصرخ:

- ما هذا، من أين أتى هذا الشرطي، ما الذي حدث؟

ليظـلَّ الشـرطي هـو الآخـر فـي حيـرة، وارتبـاك فلـم يعُـد يفهـم مـا الـذي حـدث؟ حتـى وقـع كـل هـذا ومـن الـذي تجـرأ علـى قتـل الـدّجال؟، التـي حتـى الشـرطة نفسـها لـم تجـرؤ علـى ذلـك بـل، وترتّعـد خوفـاً منـه فكيـف حـدث هـذا ومـن كـان السـبب؟ وأسـئلة كثيـرة دارت فـي مَخيلـة ذلـك الشـرطي، ليتصـل بمـديره،

ويستدّعي بقية أفراد الشرطة إلى المكان، ليتجمعوا جميعهم حول السجين "نادر" والشرطي النائم، فيحاولون إيقاظه ويبدو أنه استيقظ بصعوبة، ليجد نفسه في مكان غير مكانه وهو يقول:

-ما هذا، أين أنا؟

وبعدها يصرخ بقوة عندما يجد السكين والدماء مملوءة عليه وكأنّه غرق في وحل من الدماء؛ لينصدم من هول ما رآه قائلاً لهم:

-لم أفعل شيء، لا تنظرون لي هكذا، لستُ أنا القاتل، صدّقوني.

وهم ينظرون إليه بنظرات الشك والاستغراب، وبعضها نظرات هجوم وشراسة.

ليطلب كبير الضُباطّ بالتحقيق في الواقعة، وأخذ البصمات ليروا من هو القاتل؟

فيجدون العُجاب؛ فكل الأدلة تثبت بأن الشرطي هو القاتل، لا السجين نادر أو غيره، فيستغربون من ذلك حتى كاميرات

المراقبة أثبتت ذلك، والشرطي المُتهم مصعوق من هول ما يراه ويسمعه، وهو يحاول جاهداً أن يثبت براءته، لكن لا فائدة من ذلك، فيأمر كبير الضُباط باعتقاله وإيداعه للسجن الانفرادي باعتباره مجرم خطير جداً، فخطورته تكمن على السجن كله والسجناء، فالشرطي الذي كانوا يعتقدونه غبي وساذج ولا فائدة منه، وجدوه فجأة مُجرماً وقاتلاً مُحترفاً.

"ونادر" كان يشاهد كل ذلك أمام عينيه والشرطي يصرخ:

-صدّقوني لم أقتله، لماذا تعتقدون بأنني القاتل؟، لم أقتله، صدّقوني.

ليسأله واحدٌ منهم بعدها :

إذا لم تقتله فمن سيقتله إذاً ؟

فيُجيبهم :

-لا أعلم، أعتقدً أنه واحدٌ من أعدائه.

ليضحك بعدها طاقم الشرطة جميعهم من كلامه، وهم يعلمون أنهم جميعهم حتى هو من أعدائه، فهم يكرهونه ولا يطيقونه، لكن لم تصل لدرجة أن يقتلوه، فيجيب أحدهم:

-أعدائه كُثر، لكن لا أحد يجرؤ على قتله، أو حتى من حاول مجرد محاولة فعل ذلك، سيمُحى اسمه وهذه فقط مجرد محاولة فكيف بالفعل؟!

ليقاطعه أحد أفراد الشرطة بقوله:

-أنت تحب البهرجة والثرثرة كثيراً، أعلم ذلك وتريد الهرب من الاعتراف لكن بعد ماذا؟ لقد اكُتُشفت حقيقتك أمام الجميع، فلا مفرّ من ذلك.

ليسحبوه الشرطة ولم يأبهوُا لصراخه ويرموه للسجن الانفرادي.

ثم يأتي دور نادر، ليسألوه: ما الذي شاهده وماذا حدث؟ ليجيبهم أنه لا يعلم شيء فقدْ فقَ الوعي، ثم استيقظ في الصباح وشاهد ما شاهدوه.

فيأمر كبير الضباط بإدخاله هو الآخر في السجن، فيدخلوه في السجن الجماعي مع مجموعة من السجناء فبعضهم يُرّحب به، والبعض يراه باستغراب، والبعض يريد مواجهته وكأنه عدو جديد بالنسبة لهم فيأتي كبير السجناء ليقول له:

-ما تُهمتك؟ أخبرنا.

لكنه لا يُجيب، فيذهب عن وجهه ليستريح، فإذا بلكمة منه على وجهه حتى توقعه أرضاً وبعدها يقول له:

-عندما تتكلم مع كبارك رُد عليهم، ولا تتجاهلهم هذا أول درس لكَ وإن لم تفهم سأُفهِمُكَ بطريقتي.

ثم يمضي تاركاً "نادراً" ينزفُ من أنفه وفمه بسبب تلك اللكمة القوية من يديه، ثم ينام بعدها "نادر" ليستريح من تعب ما رآه البارحة فهو بحاجة للراحة قليلاً.

ثم يُسدل الليل ستاره، لكن هذه المرة سيكون الليل حالكاً، وأشد ظُلمة بعكس بقية الليالي الأخرى.

ليجد "نادر" مستيقظاً على صوت ذلك الرجل نفسه الذي رآه البارحة ليتكلم معه بصوت هادئ فيقول له:

-ماذا بك؟ هل أصابك مكروه؟، لقد رأيت معاملة ذلك الغبي المعتوه الذي يسمي نفسه بكبير السجناء أو بزعيمهم وهو يُلقّنك درساً وضرباً، لكن هذا الشيء لابد أن يُجازى عليه، فقد تمادى كثيراً.

ليُرد عليه نادر:

-أرجوك لا تفتعل المشاكل، لا أريد ذلك فقد يشكُّون بأنه أنا، فهو آخر من ضربني.

-لا تقلق، كل شيء مُدبرٌ ومحكمٌ للغاية، لن يصيبك أذى ما دمتُ موجود معك، لا تقلق.

فيقول له:

-كيف والسجناء سيرونك وأنت تقتله؟!

فيقول له:

-لا تخف، كل شيء مُدبر بإحكام، لا تقلق أبداً عزيزي.

فيأتي لسرير ذلك السجين، فيخنقه بالوسادة حتى لا يُصدر صوتاً، فلا يستطيع أن يقاوم فتخرج روحه الشريرة منه تاركة

كل شيء ورائه من قتل وجرائم واعتداء على السجناء، وكأنه يتذكّر شريط إجرامه في تلك اللحظة ويموت بعدها من جراء ذلك.

فيودِّع صديقه بعد أن أكمل المهمة، فيقول له نادر:

-إلى أين ستذهب؟ من فضلك تكلّم من أنت؟ وما اسمك؟ ولماذا تلاحقني وتريد مساعدتي؟

فيخبره بأنه سيُجيبه في الوقت المناسب وألّا يخاف منه أو يشك بقدراته، فيمضي بعيداً عنه، ويترك نادر في دوامة أفكاره إلى أن يغلبه النعاس، فينام حتى يأتي الصباح فيستيقظ على صراخ أحد السجناء قائلاً:

-الزعيم مات، الزعيم مات أيها السجناء.

وكأنه في لحظة فرح، لكنه لا يريد أن يُبديها حتى لا يشكّون فيه أو يتهموه بأنه القاتل.

فتأتي الشرطة لترى الواقعة، وتحقّق مع السجناء وتستجوبهم جميعهم فيقول كبير الضباط:

-من آخر شخص وقعت معه مشكلة؟

فينظـرون جمـيعهم إلـى "نـادر" ونـادر مُرتجـفٌ وخـائف فهـو يعلم أنه آخر شخص وقعت معه مشاجرة.

فيأتي رجل من بعيد فيقول:

-آخر رجل هذا سيدي.

فيشـير إلـى أحـد السـجناء الـذي دخـل جديـد بعـد نـادر بسـاعة؛ حيـث أنـه توّعـده بالقتـل بعـد أن ضـربه الـزعيم علـى رغيـف الخبـز الـذي لـم يعطـه إيـاه، وقـال بعـدها بأنـه سـيندم علـى ضـربه إيـاه أمـام السـجناء فعنـدها سـخر منـه الـزعيم قـائلاً فـي وقتهـا بسـخرية لـه: بأنـه منتظـر منـه مـاذا سـيفعل بفـارغ الصـبر؟ فلـم يتوقعـوا السـجناء بأنـه سـيتجرأ علـى قتلـه، فيجيـب السـجين علـى تلـك الاتهامـات، أنـه لا علاقـة لـه بهـذا الشـيء، وأنـه مجـرد كـلام خـرج وقـت غضـب، ولـم يكـن يقصـد بـذلك شـيء، فيتوسـل إلـيهم أن يصـدّقوه وأن يفحصـوا البصـمات، إن كـان مـات موتـة طبيعيـة، أم كـان حـادث قتـل كمـا هـم يتوهمـون، ليـأتي بعـد ذلـك التقريـر الطبـي بعـد نصـف سـاعة، بالكشـف علـى أنهـا كانـت

حادثة قتل وأن بصمات القاتل هو نفسه السجين الأخير الذي وقع الشجار معه، وتوعده بالقتل؛ لينصدم من ذلك الخبر ويُصاب بالفزع والهلع وهو يردد:

-لستُ أنا صدقوني، لم أقتله.

فيأمر كبير الضُباط بعزله عن بقية السجناء، ودخوله زنزانة انفرادي لأنه مجرم خطير ويأمر كذلك السجناء بالهدوء، والالتزام بالنظام، وعدم افتعال الفوضى وإلا سيلقون نتائج غير طيبة للجميع، ويمضي تاركًا إياهم في حيرة وتخبط مما يجري في هذا السجن الغريب، فلأول مرة يتم قتل زعيمهم الذي كان يرعبهم ويستولي على ممتلكاتهم، وجميع حقوقهم، وحتى وجبات الطعام إذا لم يشبع يعطوه إياها؛ حتى لا يفجر غضبه عليهم، والشرطة كذلك تتعاون معه لأنه يرشيهم بالمال، فهو تاجر مخدرات ومعروف لدى الجميع بقوته وسيطرته على كثير من الأموال والأشخاص، وصحيح أنه داخل السجن، إلّا أنه كان يمارس عمله بشكل طبيعي جداً، فكل شيء متوفر لديه؛ الطعام والشراب والهاتف والحمّام

المخصص، فما هذا المكان إلا مجرد غطاء لا أكثر؛ ليُبعد الأنظار عنه ولا تشك فيه، وإن رفض أحد ما أوامره حتى وإن كانت الشرطة، ستناله الويلات من العقاب والإجرام، فلا يهتم لأي شيء ولما يشعرون به، فقد يقوم باغتصابهم أو التحرش بهم، أو قد تصل به الوقاحة والنذالة إلى أن يستدعي أهل من يرفض أوامره؛ كأمه أو أخته أو حتى زوجته فيغتصبها أمامه، ولا يأبه بما يشعر آنذاك، فالجميع يخافون منه، ويحذرونه، فمن هذا الذي أتى وأخلص السجناء من شره وقتله؟! وحتى من يدّعون بأنهم أولياءه وأنصاره وأحبابه أو أصحابه، فهم كانوا يتيُحون الفرصة للفكّاك والخلاص منه بأي طريقة، فقد سئموا منه ومن عفّانة أعماله وقُبحها، فكانوا ينافقون في حبهم له، وهم لا يُطيقونه خِيفةً أن يُصيبهم أذاه كما أصاب معارضيه، وكانوا يدّعون بأنهم معه وهم في الحقيقة يريدون هلاكه في أي لحظة، فقد كانوا ينظرون إليه كالوحش الخارق في قواه، فلا أحد يستطيع مقاومته أو ردعه، فهو كالحيوان بل هو أسوء من ذلك تحركه الشهوة والملذّة، بل أننا نجد الحيوان قد يخجل قليلاً، ولا يرضى بأن يعتدي على

غير عرضه، بينما هذا كشيطان يمشي على هذا السجن، فهو والدّجال كانا نسخة من بعض في كل شيء. فقد كان يعمل مثله وأقبح من ذلك؛ بسب سلطته ونفوذه، فقد كان يقتل ويغتصب، ويتاجر بالمخدرات والنساء والأطفال وأعضاء البشر، وغيرها من الجرائم التي يشيب لها الولدان، وعلى الرغم من علم الجميع بها سواء كانت الشرطة أم السُجناء، لكن لا أحد يجرؤ على التكلم معه، أو ردّعه ومن فعل أو حاول ذلك ستنتهي حياته بلا شك، و يا ليتها تنقضي بسرعة؛ لكنه حاله كحال الشيطان فهو لا يحب النهايات السريعة لمعارضيه، بل يريدهم أن يعيشوا عذاباً طويلاً؛ كاغتصابهِ له ولجميع أفراد أسرته، وجعله مُدّمن مخدرات، ودعارة ولواط، وغيرها من الجرائم التي لا يتخيلها عقلٌ أو منطق، عندها قد يصبح شخصاً مثله تماماً يفكرُ بنفسه وذاته؛ فيصبحُ نسخةٌ مُصغرةّ من الشيطان الأكبر ذاك، فنجد البعض يُنهي حياته بنفسه بعد هذا العذاب الذي عاشه لفترة من الزمن، وهو يشاهد نفسه قد تحولت إلى ذلك الشيطان المُصّغر منه تمشي من غير وعي أو إدراك؛ فيموت بجرعةٍ زائدة من المخدرات،

والبعض يتوسل إليه بأن يغتصبه حتى الموت لينهي هذا العذاب؛ لأنه تعب من عيشة الذل والإهانة، والبعض لم يعُد يطيق نفسه فيرجوه، ويتوسل إليه أن يقضي حياته بأسرع وقت وكأنه هو واهب الحياة؛ فيشرك بالله في طلبه ذاك، ليُوقِّع بعدها بورقة تُقدم إليه بأنه له الحق في متاجرة أعضائه، وغيرها الكثير من الجرائم التي قد يستحي الحيوان نفسه -ولو كان شيطاناً- من فعلها، فكيف بهذا الذي تحول إلى مسخٍ شيطاني حقيقي يمشي على هذه الأرض؟ فلا يأبه إلا لنفسه وكأن الكون كله خُلق لإرضائه.

فهكذا المتكبرون أينما حلّوا ووُجِدوا، لا يُهمهم شيء سوى ذواتهم؛ ف "الأّنا" عندما تُسيطر علينا، وتبقى هي من تُحركنا وتقودنا لفعل ما نريد، عندها نُعزي أنفسنا، ونقرأ عليها السلام بأننا قد هيأناها للخروج من عالم اسمه "الإنسانية"، ودخلنا بكل شرفِ وقُبح دائم إلى عالم اسمه "الشيطان"، فعندها قد لا يُجدي الندم على تلك الجرائم التي سنرتكبها في حِقنا أو في حق غيرنا، وإن عُدنا بتُوبتنا، ستكون هي كذلك تُذكّرنا بوصمة عارٍ، وعندها نطلب من الله في كل يوم الموت،

لنستريح من تأنيب ضمائرنا التي عادت إلينا بعد أن حاولنا كثيراً إسكاتها وإخمادها، فكان الأجدرُ والأفضلُ لنا من ذلك كله؛ هو ألّا نُجرّد أنفسنا من إنسانيتنا، ولا ندع تلك المُغريات تُغرينا لتوقُعنا في عالم الشيطان ومُدخلاته.

.....

عندها يمسك "وائل" بذارع "جهاد" قائلاً:

-غداً تعال إلى المكتب وزاول مهنتك، فأمثالك لا يجب أن يكونوا في الشارع.

وقبل أن يحاول "جهاد" أن يلفظ أي شيء، إذ "بوائل" يغادر المكان سريعًا، دون أن يدع له فرصة أن يشكره "جهاد" أو يتحدث معه؛ ليخبئ تلك الكلمات التي كانت بداخله، وينظر إليه وهو يركب سيارته ويغادر، ثم يقرر مثله العودة لمنزله فوالديه بالطبع ينتظراه، ليُطالع في ساعته، فيجد أنه قد تأخر عليهما؛ فيترك المكان سريعاً ليتجه نحو موقف السيارات، ويركب الحافلة وهو يفكر في قرار "وائل"، وما الذي دفعه لتوظيفه بهذه السرعة؟

وهل كانت كلماته هي السبب مما جعلته يقرر ذلك؟، لكنه كان فرحاً ومسروراً بذلك القرار؛ لأنه سيحل له مشاكل كثيرة؛ فالإيجار لم يدفعه منذ مُدة، فصاحب البيت يُوبّخه نهاية كل شهر، لكنه يضطر للصبر عليهم لظروفهم المادية الصعبة، ويُهددهم أحياناً بالطرد، لكنه لم يفعل ذلك رأفة بأبيهم المُقعد المُتعب المُصاب بالقلب، فهو يعلم أنهم قد خسروا الكثير من أجله؛ فقد اضطروا لبيع بعض أثاث منزلهم في أخر عملية أجروها له، فتكاليف علاجه باهظة الثمن.

وأمه على الرغم من كِبر سنِها، إلا أنها ما زالت تتحمل الكثير من الأعباء؛ فهي تعمل خادمة لدى بعض المنازل؛ لتساعد في توفير مستلزمات مدرسة "أخته الصغرى" ذات السبع سنوات وبعض العلاج لزوجها، فهو كان يساعد أمه في بعض المصاريف عندما كان يعمل في إحدى المستشفيات، ثم طُرد من عمله؛ بسبب إيذاء بعض الناس له، ومحاولة الإيقاع به لأنه كان ناجح ونزيه في عمله، فاضطر أن يعمل "كحمّال" في المحلات التجارية لبعض البضائع، ريثما يجد العمل

المناسب، لكن ذلك العمل لم يُغطِّ الكثير من المتطلبات الأساسية للعائلة.

وهكذا ظلّ يُبحر في دائرة أفكاره تلك وهو على متن الحافلة، وفجأة وصل إلى البيت لينزل بعدها من الحافلة وتباشير الفرح على وجهه، ويتجه نحو المنزل لكن هذه المرة لم يجد أحداً فيستغرب وهو يصيح بفرح :

-أمي، أبي، جنى، أين أنتم جميعًا؟ يا إلهي ما هذا؟! لا أحد، تُرى أين ذهبوا جميعًا؟

ليقرر أن يتصل بأمه فيسمعُ هاتفها يرن لكن دون رد منها، فيقلقُ أكثر، بعدها يذهب إلى مكان عملها إلى منزل العمة "سارة" التي تعمل عندهم أمه كخادمة، علّه يجد خبر عنها وهو قلقٌ عليها وعلى أبيه وأخته، ويشعر بعدم الارتياح والاطمئنان، فيصل إلى بيت العمة "سارة" ويدقُ بابها فتفتح له العمة قائلاً:

-أهلاً عمة "سارة"، العفو منكِ إذا أزعجتك في هذا الوقت، ولكن اتصلت بأمي، فلم ترد علّيّ، فظننتُ أنها قد تكون هنا، هل هي بالداخل؟

لترد العمة "سارة" عليه بقولها:

-أهلاً بُني، ولكن أعتذر يا بُني على هذا الخبر الذي سأخبركَ به، ولكني مضطرة أن أخبركَ به.

فيقول لها وهو يرتجف خوفاً وعيناه قد اتسعتا قليلاً:

-أخبريني من فضلك، لا تُخفي عليّ، هل حدث لأمي أو أبي أو أختي مكروه؟!

-أرجوكِ رُدِي عليّ.

فتخبره أنه جاءها اتصال من "جنى" أخته الصغرى بعد عودتها من المدرسة، ووجدت والدها مرمياً على الأرض فخافت وقتها واتصلت بأمك، بعدها أمُك تركت كل شيء كان في يدها بعد أن أخذت الإذن مني، وقتها أمرتُ ابني "عمر" أن يأخذها بسيارته ليُسعف أباك للمشفى وهو الآن معهم.

ليشكرها بعد ذلك "جهاد" على معروفها، ويطلب منها أن تعطيه عنوان المشفى واسمها، لتعطيه بعد ذلك العمة سارة، ثم بعدها يستقلّ سيارة أجرة؛ ليذهب إلى المشفى فيجد أمه وأخته جالستين على مقعد الانتظار، ويبدو عليهم القلق والخوف بشدة على صحة والده، فعندما تلمحه أخته "جنى" تترك حضن أمها متجهة نحوه وهي تبكي قائلة:

-أخي، أبي بالعناية المركزّة، لا أريده أن يموت.

لينزل "جهاد" على الأرض ويمسح دموعها ويحتضنها قائلاً:

-أولاً: لا أريد أن أرى دموعك الجميلة هذه، ثانياً: أبي قويّ سيخرج سالماً بإذن الله ككل مرة، ما علينا سوى الدعاء له.

فتقول له وهي تشهقُ حزناً:

-لقد دعوتُ له كثيراً.

فيقول لها:

-بإذن الله سيستجيب دُعائكِ، لا سيما وأنتِ صغيرة، فالأطفال هم أحباب الله سيستجيب لهم سريعاً.

فتقول له وهي فرحة قليلاً:

-أحقاً يا أخي، أنه سيستجيب لي سريعًا لأني طفلة؟!

فيقول لها:

-نعم، بإذن الله، لكن علينا أن نؤمن بالقدر خيره وشره.

فتقول:

-وما هذا القدر خيره وشره؟

فيقول لها:

-سأُخبركِ لاحقاً، الآن دعينا نذهب إلى أُمنّا.

وأُمهما جالسة على المقعد، تسمع حديثهما من مسافة لا بأس بها، فترى "جهاد" آخذ "جنى" في حضنه قادماً إليها، فيجلس "جهاد" إلى جانب أُمه واضعاً "جنى" على المقعد وأخذ رأس أُمه على حضنه قائلاً:

-لا تقلقي يا أمي، سيكون بخير بإذن الله، وسيخرج سالماً لنا كالعادة، فقلبُ أبي يُشبهنا في صبرنا وقُوتنا وصراعنا مع الحياة، أليس كذلك يا عزيزتي ؟

لترد عليه بقليلٍ من الابتسامة المُنهكة:

-بإذن الله يا بُني.

وبينما كان رأس أمه في حضن ولدها، راوده سؤال: أنه من أين أتت بمال العملية فتجيبه: أنها من السيدة "سارة" التي أقرضّتها بعض المال مقابل أن تكون خادمة لها مدى الحياة. فيحزن "جهاد" أن أُمه لم تجد السعادة يوماً في حياتها، وكأنه مكتوب عليها أن تكون خادمة لدى الغير وتعيسة مدى الحياة، فيقول لها وهو يُطبطبُ على رأسها محاولاً بذلك مواساتها قليلاً:

-بإذن الله سيتغير كل شيء يا أمي، لا تقلقي.

لتجيبه والدموع بعينيها:

-إن شاء الله يا بُني، المهم الآن هو أبوك، أما أنا فلا يُهم.

فيقول لها:

-لا تقولي هكذا، أنتِ كذلك مُهمة بالنسبة لنا، وكل شيء سيتغير بإذن الله، لا تقلقي يا عزيزتي ثقيّ بي.

ثـم يسـألها عـن "عُمـر" ابـن العمـة "سـارة" هـل هـو مـا زال موجـود أم ذهـب؟ فتجيبـه: بأنـه بعـدما دفـع لهـم التكـاليف ذهـب.

قائلة لابنها:

-السيدة سارة وابنها لم يقصرا معنا، يا بني.

ليُرد جهاد عليها بقوله:

-أنـا لا أقصـد أبـداً بقـولي هـذا الـذي سـأقوله الإسـاءة لهمـا، ولكـن هـذه الحقيقـة يـا أمـي، فهـو لـم يكـن فضـلاً منهمـا يـا أمـي، فقـد جعلـوكِ تـوقعين بورقـة العبوديـة لهـم مـدى الحيـاة، فكـل شـيء بمقابـل وثمـن، حتـى عنـد الحـزنِ لـن يلتفـت لـكِ أحـد، إلّا إذا رأى أن فـي حُزنـكِ قـد تكـون حاجـة لـه، وهكـذا هـم أغلـب النـاس، إلا مـن رحـمّ ربـي، ولكـن يـا أمـي، لابـد أن يتغيـر كـل شـيء فمـن المُحـال دوام الحـال، لا تقلقـي ستسـير الأمـور كمـا نريـد بـإذن الله.

ليتعقّبها بسؤال آخر:

كم من الوقت وهو ما زال والدهم في العناية المركزّة؟

فتجيبه: أنه بالداخل لأكثر من أربعِ ساعات، ولم يأتِ أحد من الأطباء ليُطمأنهم عن حالته، لينهض "جهاد" من مقعدهِ ويشاهد أحد الممرضين ماشياً في ممر المشفى، فيطلب منه أن يسأل عن حالة والدهم وكيف وضعه؟ بعد أن أعطاه جهاد بيانات والده كاملة، فيطلب منه الممرض التريُّث قليلاً، حتى يعود إليه بالخبر، وبينما هم جميعاً منتظرون أمام الغرفة التي يتواجد فيها والدهم، إذا به أحد الأطباء يخرج من الغرفة قائلاً:

-عائلة السيد "أحمد"، أين هي ؟

ليُسرع جهاد بالإجابة وهو وَجِلٌ:

-نحن عائلته، من فضلك أيها الطبيب كيف حالة والدي الآن؟

ليجيبه الطبيب قائلاً:

-كل شيء بقضاء الله وقدره يا بُني، ونحن حاولنا بكل استطاعتنا لإنقاذه، لكن مشيئة الله فوق كل شيء.

ليقاطعه "جهاد" بقوله وكأنه لا يُريد أن يُصدّق ما يقوله الطبيب:

-ماذا يعني ذلك؟

فيجيبه الطبيب:

-لقد تُوفي والدك.

ثم يمضي الطبيب بعيداً عنه، وأمه تسمع حديثهما و "جنى" غلبها النعاس فنامت من الانتظار، فخافت الأم أن تسمع "جنى" الخبر فتستيقظ ثم تبكي بعد ذلك، عندها حاولت أن تكتم صوتها بالبكاء، لتجد الدموع من عينيها تنزل رغماً عنها، فقد كانت آنذاك هي الوحيدة القادرة على التعبير عمّا بداخلها، وجهاد ينظر إليها ودموع والدته على خديها، وجنى بجانبها وهو متسائلاً في عقله عن هذا البكاء الذي يشاهده أمام عينيه، وكأنّه لم يُصدق بعد ما قاله الطبيب له ولم يستوعب حقيقة ما قاله له، ويتمنى أن يكون مجرد حُلم أو كابوس ليستيقظ منه.

.....

وبعد أن انتهى "وائل" من تناول عشائه، إذ به يدخل غرفته بعد أن ودعّ والدته، وقبل أن يخلد للنوم اتجه نحو خزانة كتبه، فتردّد قليلاً على فتحها؛ لأنها تُذّكره بماضيه الذي يريد نسيانه، فوجد دفتره الخاص المليء بالأسرار، التي لا يعلمها أحد سواه، حتى أمه لا تعلم منها شيء، فيأخذ القلم الذي كان بجانب الدفتر ذاك، ويبدأ يُدون هذه المرة بعد أن توقف عن التدوين والكتابة لمدة من الزمن، لكن "جهاد" هو من جعله هذه المرة يُدون ويكتب، وكأنه أحيا شيئاً بداخله كان ميتاً فكتب هذه الكلمات:

"يبدو أن هذه المرة سأفتحُ قلبي لشخص جدير بالثقة، نعم، إنه "جهاد" اسم جميل جداً، يحمل معنى عميق؛ هو حقاً جهاد بكل ما تحمله الكلمة، يقولون أن كل اسم له نصيب منه، ف "جهاد" أخذ نصيبه من اسمه كثيراً، فصار جهاداً في الحياة هذه، هو رجلٌ بألف رجل، لا أعرف لماذا أكتب عنه؟، ولكني أعرف أنه شخصية تستحق أن يُكتب عنها، فهو عظيم جداً، كنت أتمنى أن أكون مثله في يوم من الأيام، هو رجل قلّت الرجال منه في زمننا هذا.

"جهاد" شخصٌ طيبٌ جداً، يحمل بداخله أُمنيات وأحلام، كأي رجل منّا لكن أحلامه تشبهُ، تشبه نقاء قلبه، فهو رغم كل ما يحمله من وجعٍ وألم، إلّا أنه قويٌ جداً، يستطيع تحمل المزيد والمزيد، وكأنه بذلك يُعلِّمنا أنّ الحياة تريد صبراً كثيراً؛ فما رأيناه إلا قليلاً فوراؤنا الكثير لنشاهده منها، وكأنه يذّكّرنا بقوله تعالى:{أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ}. [البقرة : 214].

أنه حقاً كتاب من الدروس لابُّد للواحد منّا أن يتعلَّم منه؛ فالأحزان والآلام التي ذاق منها الكثير، حتى جعلته رَجُلاً عظيمًا جدير بالثقة من قِبَل الجميع؛ يمد يده للصغير والكبير، ويبتسم رغم كل العناء الذي يحمله، وبالرغم من الطعنات التي احتساها من غيره، إلّا أنه لم يقرر الانعزال أو الانطواء على نفسه كالكثير منّا، بل ظلّ يفتح بابًا جديداً للصداقة لمن ليس لديهم صديق ولكن بحذرٍ.

طيبٌ للحد الذي قد تصف طيبته بالسذاجة والغباء، إلّا أنّ الحقيقة: أنّ الطيبة لم تكن يوماً غباءً أو سذاجة، بلّ نحن من أسميناها بذلك؛ لأننا في الحقيقة توغلّنا في الشر والخُبث الذي كان بدواخلنا، أو اكتسبناه مع مرور الزمن من بعض أوجاعنا وآلامنا، أو خذلان أو خيانة البعض لنا؛ تاركة علاماتها على صدرونا، لا نستطيع أن نُمحيها من دواخلنا، أو قد تتحول إلى جبلٍ من الأحقاد والغِل الذي كاد يُفجرنا، لنقرر بعدها بأن نخرجه للعَلن؛ لنصيب به من قتلونا وجعلونا نعيش تلك المرارة، فنجعلهم يعيشون ما عشناه، ولو كان جزءاً يسيراً منه.

إن أمثال "جهاد" قلّة في زمن كَثُرت فيه الأنانية المُفرطة للذات وتقديسها؛ "فجهاد" هو بذرة أمل ما زالت يانعةٌ، تحاول أن تكبر وتقاوم إلى أن تصل لمستوى نُضجها، وعندما تصل إلى ذلك؛ تُعلّم غيرها معنى (الإنسانية الحقيقية) التي كادت أن تُنسَى منّا ونُمحيها بخطايانا، فما يحمله" جهاد" وأمثاله؛ هو شيء ثمين للغاية لا تُقدَّر قيمته بكنوز هذه ألأرض جميعاً، فهم عظماء بما يمتلكونه من دواخلهم؛ من حبٍ ونقاء وسلام

داخلي، وليس بما يمتلكونه من ماديات وقصور ومباني مثلنّا نحن الأغنياء، فنحن فقراء حقاً أمامهم، وهم حقاً أغنياء، وما خلّفته الحياة لهم من مُعاناة ومأساة، كانت هي الأخرى ليست بقليل لكنهم صمدوا وأثبتوا للجميع أن الحياة مُستمرة ولن تقف على أحد، وأن الناس بكل أنواعهم وأشكالهم، وحتى نَواياهم؛ هم عبارة عن دروسٍ لابّد أن نتعلّمها، أو محطات لابد أن نعبرَ من خلالها، وهذا ما علّمنا إياه "جهاد " وأمثاله.

فلابُدّ أن نستمر في الحياة هذه، لابُدّ أن نُكابر ونتألم، ونمسح دموعنا بأيدينا، ونقتل بعض من أُمنياتنا؛ لنحيا أو ليحيا غيرنا، "هذا ما رأيته في "جهاد" ومن مِرآة عينيه النقيتين، التي عكست نقاء قلبه الطِّيب الفريد من نوعه، والذي من الصعب إيجاد أمثاله في زمن كثُرت فيه حب النفس والهوى والمال، وأي قبح كقبحِ حب النفس والهوى والمال!".

وهو يكتب تلك الكلمات، إذ أحسّ أن هناك دمعٌ سيسقط من عينيه؛ فقد تُمحي بعض عباراته فمسحَ بيديه دموعه، وكأنه يُطبّق ما كتبه عمّا قليل، وأغلق الدفتر سريعاً حتى لا يُبلّ

الـدفتر بدموعـه، وبعـدها أجهـشّ بالبكـاء طـويلاً، وأحـسّ أنـه سـيختنق منـه، وأدرك أنّ الكـلام قليـلٌ فـي حـق شـخص عظـيم "كجهاد"

فهـو رأى أن "جهـاد" مهمـا كتـب عنـه سـيظلّ قاصـراً فـي حقـه، لـم يُوفِّـه قـدره؛ لأنـه حقـاً يسـتحق كـل الاحتـرام والتقـدير، ف "وائـل" هـو محلـلّ نفسـي "كجهـاد"، ويعـرف تحليـل الشخصـيات؛ إلا أن الفـرق بينـه وبـين جهـاد كبيـر، لـيس فـي الطبقـة الاجتماعيـة كمـا قـد يراهـا الـبعض، لكـن البـون شاسـع؛ هـو أن "وائـل" لا يسـتطيع أن يثـق بأحـد بعـد آخـر طعنـةٍ تلقّاهـا مـن زوجتـه التـي كـان يُحبهـا حبـاً جمًّـا، بـلّ كـان يعشـقها كـالمجنون فهـي، كانـت طبيبـة نفسـية مثلـه، وكانـت تعمـل عنـده فـي مشـفاه التـي تعـرّف عليهـا هنـاك وتزوّجهـا، إلّا أن الخيانـة كانـت تجـري منهـا مجـرى الـدم، فهـي لا يُهمهـا المشـاعر أو غيـره، كـل مـا يُهمهـا المـال، وقـد ترضـى أن تتـزوج بالشـيطان ذاتـه، إذا رأتـه قـد أعطاهـا أكثـر مـن ذلـك الإنسـيّ ولـو كـان غنيـاً، فمـا يُهم هـو مـن يُعطـي أكثـر، ولـيس جِنسـهُ أو نوعـهُ، فهـي رأت أن "وائـل" لا يسـتحقها؛ رغـم أن

"وائـل" مـن الأثريـاء إلّا أن طمعَهـا وجشـعَها، كـان أكبـر مـن ذلك.

وبـالرغم مـن أن "وائـل" كتـب بعـض أملاكـه باسـمها، إلا أن هـذا لـم يكـفِ فـي نظرهـا، فقـرّرت أن ترمـي طفلهـا الرضـيع، ليتحمّـل هـو نفقتـه، وحتـى لا يشـكِّل عـبء عليهـا فـي مُخططهـا؛ فطلبـت الطـلاق بعـد أن ضـمنت جميـع حقوقهـا، وتزوجـت بمـن هـو أغنـى منـه؛ مـن صـديقه العزيـز الـذي كـان يعتبـره أخًـا لـه، فهـو صـديق طفولتـه، الـذي لـم يتوقـع يومـاً أنـه سـيكون عـدواً لـه، فقد اشترك هو الآخر في خيانته معها له.

وبعـد أن تركـت طفلهـا "لوائـل" وهـو مـا زال رضـيعاً، عنـدها كـان "وائـل" عـاجزاً أن يتصـرف آنـذاك، فهـو لا يعـرف كيـف يُربِّـي الأطفـال، وقتهـا قـرّر أن يعـيش مـع والدتـه؛ ليجعلهـا ترعـى ابنـه الرضـيع، إلا أن الطفـل كـان يعـاني مـن مـرض القلـب، وزوجتـه كانـت تعـرف ذلـك ولـم تخبـر "وائـل" بمـرض ابنـه؛ لانشـغالها بالخيانـات التـي كانـت ترتكبهـا مـع عُشَّـاقها، فعلاقاتهـا أهم من طفلها.

ليظل الطفل الرضيع أشهر مع "وائل" ليقرر هو الآخر التخلي عنه وللأبد، ليُدفنه "وائل" وهو يشعر بأنه المُذنب، وأنه لم يُعطِه القدر الكافي من الرعاية والاهتمام، وأنه اختار له أُمّاً سيئة كزوجته تلك؛ ليقرر بعدها بعدم الزواج أو الثقة بأحد، فهو لا يصلح أن يكون أباً أو صديقًا أو زوجًا، وهو يؤنب ضميره، بالرغم من أنه لم يقترف أي خطأ، إلا أن "وائل" كان من الأشخاص الذين يمتلكون ضميرًا حيّاً، قلّما نجده عند البعض.

بينما زوجته غارقة في وحل خطاياها، ومستنقع الرذيلة الذي اختارته طريقاً لها مع زوجها، الذي هو الآخر خان الصداقة والعشرة، وكأنهم وجدا روحهما المتشابهتين في القُبح والدناءة، حالها كحال بعض الناس؛ الذي قد يغير جلده وشكله ولونه، بل جنسه من أجل المال، وكأن المال هو محور الكون وأساسه، بل ومرتكزه، بل وقد نجد شعوباً وقبائل، ودول تتحارب من أجله، وكأن المال هو الإله المعبود، فما أقبح الأنسان أن يصل لدرجة عبادة المال وإرضاء الذات !، فعندها لا لوم أو عتاب يُفيد.

فالإنسان الحق، وذو الفطرة السّوية؛ يرى أن المال مُجرد أداة لتغطية بعض الحاجات وليس جميعها. فبالمال تستطيع شراء منزل ضخم لك، لكنك لا تستطيع شراء سعادة بداخله، وبالمال تستطيع شراء أفضل سرير، وأُكسجين صناعي لمريض، لكنك لا تستطيع شراء العافية له، وبالمال تستطيع شراء أضخم الماركات والملابس والأجهزة وغيرها من الماديات، - فقد تجد في كل تلك المسميات ما تسميه بالحرّية والانطلاق والعالم المنشود الذي ترغبه-، لكنك لن تستطيع شراء شيء اسمه: راحة البال بكل تلك الأشياء، وهذا ما ذكره النبي (صلى عليه وسلم) في حديثه الشريف بقوله: ((من أصبح آمناً في سِربه، مُعافاً في بدنه، عنده قُوت يومه، فكأنما حِيزت له الدنيا بحذافيرها)).

فالسعادة الحقيقية؛ ليست كلها في المال، وما تدور حوله أنما في حقيقة ما تمتلكه؛ فقد تمتلك رغيف خبز صنعته بيدك، أو اشتريته من عرق جبينك بالحلال، فتشعرُ بالسعادة العارمة أفضل من ذلك الغني الذي لديه الأنواع المختلفة والكثيرة من الخبز؛ الأحمر والأسمر والأبيض والمُحمصّ وغيره، لكن لا

سعادة فيما يأكل أو ما يتذّوق وقِس على ذلك الكثير من الأمثلة.

بل إن أنانية الشخص، وإتباع ما ترضاه نفسه وهواها؛ حيث أنه يمثل بهذا الوصف: صديقه الذي خان العشرة والثقة من أجل إشباع رغبته الحيوانية في التمتّعِ وإرضاء ذاته.

إن الإنسان عندما يصل لمستوى «الأنَّا»، وحب الذات لن ينظر أبداً لكل تلك الأشياء القيّمة التي بداخله؛ أو تجمعه بأشخاص ما، وكأنّ أصابه عمى مفرط ، وهذا ما حكى القرآن عنه بقوله :{فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } " الحج:46. "

وليس هناك أعظم من قول الله وكلامه؛ وهذا ما مثّله صديق "وائل" الذي طغت شهوته وحُبه لنفسه، فاتّبع هواه وجعله إلهه المعبود، وهذا ما ذكره كذلك ربُنا في قوله: { وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى}. فلو كان صديقٌ حق لما خان صداقتهم، واتّبع هواه ليشبع رغبات نفسه وهواه.

إن صدمة "وائل" في الخيانة لم تكن سهلة أبداً، وهذا ما جعلته يقرّر الانعزال عن العالم أجمع، ويصبح منطويٌ على نفسه من الجميع. بينما "جهاد" رغم كل ما يعيشه من أوجاع وصدمات، لم ييّأس للحظة، وظلّ يقاتلُ وهو مبهور أمام هذه الشخصية التي ركلتها الحياة ضرباً، إلا أنه صامدٌ أمامها، وكأنه جبل لا تهزه شبرٌ من تلك الرياح. فهكذا هم العظماء في كل زمان ومكان؛ يبتسمون للغير -والتي قد يُسميها البعض- بابتسامة مُزيفة أو صفراء، إلا أنه في الحقيقة أن في ابتسامتهم تلك نتعلمُ درساً؛ هو إن الحياة لا تقف على أحد، وإن الإنسان لابُدّ أن يبتسم رغم كل ما يحدثُ له، أو حتى يعيشه في واقعهِ، فلو كانت الحياة ستقف على شخص ما، كانت الحياة بالأحّرى ستقف على نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم)، لكنّ الحياة لا ولن تقف على أحد، ولابُدّ أن تستمر؛ لأنها مشيئة الله، فمشيئته وقدرته فوق الجميع.

وهذا ما كان يقوم به "جهاد" وأمثاله؛ يبتسمون للحياة ويفتحون أُكفّهم من جديد، وهم مبتسمون، وكأنهم يقولون للحياة مهما كنتِ علينا قاسية سنظلّ نتفاءل بالأجمل، جاعلين

من سيرة نبيهم محمد (صلى الله عليه وسلم)؛ قدوةً لهم وهم يمضون وكلهم ثقة بخالقهم، والأمل بين أُعنيهم. ليقرر بعدها "وائل" أن يحذو حذو "جهاد" ولن يتراجع في ذلك.

.....

وبعد يوم طويل من الأحداث المثيرة والغريبة في السجن لأول مرة يشاهدونها السجناء بعد هدوء طويل في هذا السجن؛ أحسّ السُجناء أنّ لابُدّ لهم، أن يستريحوا قليلاً من ذلك التعب، ويأخذوا قسطاً من الراحة، ليخلد بعدها الجميع إلى النوم، إلا رجلٌ كان صديق مُقربٌ من "الزعيم" ظلّ طوال الوقت وهو يُفكر بمقتل زعيمه، وكيف قُتِل؟ والكثير من الأسئلة التي ظلّت تجول بخاطره إلى أن غلبه النعاس، وقبل أن يضع رأسه على الوسادة في السرير، إذ بشخص من خلفه يُمسك على فمه ليعطيه مادة مخدّرة ثم بعدها يخرج سكيناً صغيرً، ليطعنه بها في أحشائه، ثم يُغطي عليه بأحد اللحاف المُلقاة على السرير، ثم يذهب بعيداً عن الأنظار.

وقبل أن يذهب لمحه نادر، وأردف قائلاً:

-أنت من جديد، ما الذي أتى بك ولماذا قتلت هذا الرجل؟ سيقولون بأنني القاتل، لماذا دائمًا تُورطني بالمشاكل يا هذا؟

وقبل أن يُكمل نادر حديثه، وأسئلته إذ به يقاطعه قائلاً:

-كل ما أردته هو أن تعرف أن هذا الرجل، هو شريك "الزعيم" في الجرائم، فأردتُ أن أتخلص منه؛ حتى لا يُصيبك بمكروه يا نادر، فأنت طيب، والطيبون بهذا الزمن سيواجهون الكثير من المتاعب، وحتى أُُريّحكَ من تلك المتاعب تخلصت منه وللأبد، ومن ناحية الاتهام، لا أحد سيتهمك، ثقّ بي، كل شيء مُدبرٌ ومُحكمٌ بعناية، كل ما عليك، هو أن تفكر معي بطريقة للخروج من هذا السجن، وسوف أُساعدك، فأنت تعلم جيداً أنك بريء، وأن التُهمة التي أُُلفقت لكَ عن مقتل زُوجتك تهمةٌ باطلةٌ لا أساس لها من الصحة ولا بُدّ للقانون أن يُغيّر نظرته للأمور ويَحكم بالعدل.

ليقتنع نادر بكلامه، وكأنه بذلك يريد أن يبعد نظره واهتمامه عن جرائمه تلك، ليرّكز على قضيته ليردف نادر قائلاً:

-معك حق فيما قلته، سأفكر بطريقة، وأتمنى أن تساعدني كالعادة في هذا المأزق.

ليوعده بأنه سيساعده بالخروج، ثم يُودّعه، ويطلب منه الخلود إلى النوم، ليذهب هو الآخر إلى النوم، وماهي إلا ساعات قليلة ليشعر "نادر" بعدها بالنعاس ثم ينام.

وفي الصباح التالي استيقظ جميع السجناء من نومهم ليستعدوا لتناول إفطارهم، واستيقظ "نادر" معهم؛ ليتناول طعامه فهو جائع منذ مُدة. ليغادر الجميع من الزنزانة ويذهبوا إلى غرفة الطعام لتناول طعامهم، وبعد أن انتهوا من تناول إفطارهم دخل الجميع إلى الزنزانة، وعندها وجد أحد السجناء صديق "الزعيم" ما زال نائم، فاستغرب أنه ما زال نائماً ليحاول أن يوقظه، ويرفع اللحاف عليه ليجده مُغرقاً بالدماء، وهو نائم على بطنه، فيصرخ والجميع ينظر إليه، وهو مندهشٌ من هذه الواقعة، ليذهب أحد السجناء إلى نهاية بوابة السجن ويصرخ قائلاً:

-جريمة أخرى، تعال أيها الشرطي، من فضلك.

ليترك الشرطي كل ما بيده ويستدعي كبير الضباط، وبعض من رجال الشرطة ليدخلوا معه السجن الجماعي، فيشاهدوا صديق "الزعيم" مقتولاً والسكين مغروس في بطنه، وهو مغرّق بالدماء، فيأمر كبير الضباط بالتحقيق في الواقعة، ليحققوا في الواقعة، ويفحصوا البصمات، ليجدوا أن القاتل هو من أيقظ صديق الزعيم ذاته، ليصاب بعدها بالصدمة، كيف أن يكون كذلك؟ وهو ما أتى إلا ليوقظه من نومه، ولم يقتله أبداً، ولم يفكر بمجرد تفكير بقتله فكيف يكون ذلك؟! فيتحققوا كذلك من أمر الكاميرات الموجودة بالسجن، فيجدوا هي الأخرى تثبت حقيقة أنه هو القاتل لا غيره، ليصرخ أمام الجميع:

-لستُ أنا القاتل، صدّقوني، إنما جئت لأوقظه، لم أقصد شيئاً غير ذلك.

والجميع ينظر إليه بنظرة الدهشة والحنق، كيف يقتل صديقه الذي تقاسم الحزن معه؟ وكيف هانت عليه العشرة بقتله؟ فيستحقره البعض، والبعض ما بين مصدّقٍ ومكذب.

وهكذا ظلّ البعض في حيرة من أمره، وكيف أصبح هذا السجن وكراً للجرائم؟ بعد أن هدأ منذ فترة طويلة عن تلك الجرائم التي لم يعُد يشاهدوها من قبل، كيف لها عادت من جديد ؟ ومن هو الشخص المسؤول عن كل هذا؟ أهم حقاً المجرمون الذين تم القبض عليهم؟، أم أن هناك رجل آخر متخفي ورائهم؟، ظلّ الجميع يسأل نفسه، ويستغرب من تلك الجرائم التي باتوا يشاهدونها يوماً بعد يوم، تاركين الإجابة عالقة هي الأخرى في أذهانهم، علّه يأتي يوم تنكشف فيه جميع الحقائق المستورة والغامضة في هذا السجن الذي أصبح غريباً ما بين ليلةٍ وضُحاها.

.....

وبعد وقت طويلٍ من الصدمة التي سمعها من الطبيب، أدرك "جهاد" أنه لابُدّ أن يكون قويًا، فالجميع بحاجته، ليكتُم وجعه بداخله ويذهب إلى أمه قائلاً:

-أمي من فضلكِ كُفي عن البكاء، وخُذي "جنى" سنذهب للبيت، وبعدها سأعود للمشفى؛ حتى أستطيع أن أُخرج أبي،

ثم نُكمل مراسيم الدفن ولا تخبري "جنى" بشيء، حتى يحين الوقت المناسب لإخبارها.

لتمسح بعد ذلك أمه دموعها، ثم تأخذ "جنى" وهي ما زالت نائمة على مقعد الانتظار بالمشفى، فتحتضنها وهي تتنّهد وتشهق بحزنٍ، ثم تمضي ليمضي" جهاد" هو الآخر خلفها، ليوقف بعد ذلك سيارة أُجرة، حتى يصلوا إلى منزلهم آنذاك، ثم يمضي بعد أن تطمأن عليهما، وأنهما في المنزل، ليستقلّ بعدها سيارة الأُجرة التي كانت تنتظره هي الأخرى بالخارج؛ ليذهب مرة أخرى للمشفى، ثم يُكمل بعدها إجراءات المشفى من أوارق وغيرها، وبعد أن أنهى عمله يشعر وقتها بوخزٍ شديدٍ في قلبه، وكأنّ تلك الوخزة كطعنة سكين جعلته يشعر بالتعب والإعياء، وكأن قواه هي الأخرى تريده أن يستريح قليلاً، فقد خارت قُواه من التعب ليجلس بعدها على مقعد الانتظار، علّه يأخذُ قسطاً من الراحة وإذ به يغلبه النعاس ثم ينام.

ليستيقظ على أصوات بعض المُمرضين والأطباء في الممر ليأتي أحد الممرضين إليه قائلاً:

-من فضلك، هل أكملت إجراءات المشفى حتى تُخرج أباك أم لا؟

فيخبره أنه قد أكمل كل الإجراءات البارحة، ويسأله هل من شيء ناقص بعد؟ فيقول له الممرض: فقد أراد أن يتأكد من ذلك، وأنه بإمكانه أن يُخرج أباه في أي لحظة، ليقرر بعدها "جهاد" أن يأخذ أباه، فيُمسك بهاتفه ويتصل بأحد أصدقائه؛ ليساعدوه في ذلك، فيرى رقم "نادر" محفوظ لديه منذ فترة، فأخر لقاء كان بينهما عندما التقيا فجأة في إحدى المطاعم؛ ليصرخ "نادر" بصوتٍ عالٍ: أهو أنت "جهاد"؟ ليردّ "جهاد" عليه: أنه هو.

ثم يتبادلان الحديث، وكيف كان يقضيان الوقت معاً أيام الطفولة؛ ليأخذا بعدها أرقام بعضهما، حتى يتسنى لهما الاتصال ببعض، لكن انشغال "جهاد" جعله ينسى الأمر، حتى "نادر" ذاته انشغل عنه، لقد تذّكر كل شيء، وكيف أن الحياة

فرقت بينهما؟ عندما انتقلت عائلة "نادر" إلى مبنى آخر بعيد بعد موت والده، ولكن هذه اللحظة جعلته يتذكر صديقه المفضل لديه. ليقرر بعدها الاتصال به، فهو متأكد بأنه لن يخذله ككل مرة، فهما يشبهان بعضهما في كل شيء. هكذا كان يعتقد "جهاد" فيلتقط رقمه، ويتصل به ليرن بعدها مباشرة فيرد عليه "نادر" قائلاً:

-جهاد أهو أنت؟، أخيراً لقد اتصلت بي، كم افتقدتك يا رجل.

-أعتذر أنني لم أعاود الاتصال بك، لأنني الآخر انشغلت عنك.

ليخبره "جهاد" بعدها بكل ما حدث معه؛ فيحزن نادر عليه فيقرر مساعدته، ويترك كل شيء بيده ثم يتجه نحو "جهاد"، وإذا "بجهاد" يفكر هل ما سيقوم به صحيح؟ وذلك أن يدفن والده دون علم أمه، أم من واجبه أن يُخبرها، ليقرر بعدها أن يتصل عليها، فإذا هي ترد من أول ما يرن هاتفها قائلةً:

-بُني من فضلك، أخبرني ماذا فعلت وهل أخرجت والدك أم لا ؟

فيُخبرها بأنه سيدفنه، وأنه لا داعي أن تحضر، لأن "جنى" هي بحاجتها الآن كثيراً، فتشعر بحزن، أنها لن تحضر مراسم دفن زوجها، فتخبره بقولها: أن يفعل ما يراه مناسبًا، وأنها تثق بقراراته.

لتبكي على إثر ذلك، وتخبره أن "جنى" حزينة هي الأخرى؛ لأنها تريد أن تكون بجانب أبيها، ولا تريد أن تذهب إلى المدرسة، حتى تطمأن على والدها؛ فقررت أن تظلّ معها في المنزل، محاولةً أن تُنسي "جنى" أمر والدها؛ حتى لا تحزن وتمرض، فهي عاطفية جداً ومتعلقة بوالدها كثيراً، وحتى أنها رفضت أن تأكل شيئاً، حتى يعود والدها مُعافًا، فقد يَئِست من إقناعها أن تأكل، فهي عنيدة جداً، وبينما كان "جهاد" يسمع كل تلك الأخبار من والدته، إذ يشاهد "نادر" من بعيد يُلوح له، فيلوح له هو الآخر بيده، ليقول لأمه بعد ذلك أنه ريثما يعود سيتصرف مع "جنى" وسيحل كل شيء، عليها ألّا تقلق، وأن تكون قوية، وأنه يُحبهما كثيراً، وأن يهتما بنفسهما؛ هي و "جنى"، ليغلق بعدها الهاتف ويصل "نادر" إليه، فيأتي نادر ليقول له: أين الجثة حتى نُدفنها؟ فيخبره: أنها في الثلاجة،

ليأخذا جثته بعد ذلك، ثم أن نادر قد أحضر معه الكفن، وغيره من مستلزمات الدفن، وأحضر معه رجلًا آخر ليساعدهما، ليصلوا بعد ذلك إلى المقبرة، ثم يُصلّوا عليه، ويدفنوه، و "جهاد" حزين لم يبكِ بعد؛ فقد خبّأ بكاءه بداخله، فيشعر بالحزن على فراق والده.

ليشكر" نادر" على وقفته معه فيخبره نادر: أنهما أصدقاء وإخوة، فلا داعي لأن يشكره على ذلك، فيخبره نادر أن يأتي معه إلى المنزل أو إلى أي مكان عام لينفّس عن نفسه قليلاً ويتحدثان، -إذا أراد ذلك- فيشكره "جهاد" على ذلك المقترح، لكنه يخبره أنه لا يستطيع أن يذهب إلى أي مكان، فأسرته بحاجته الآن. فيطلب منه أن يوصله إلى منزله، معتذراً منه إن كان الأمر يشكِّل إزعاجًا له، ليسرع "نادر" بقوله له: أنه لا يجب أن يقول مثل هذا الكلام، فهم إخوة وأصدقاء منذ الصغر، وأنه لا يوجد إزعاج على الإطلاق، ثم يركبا السيارة وكان الصمت حاضر الموقف، ليتكلم نادر بقوله: أنه لا عليه، وأن لا داعي لأن يحزن؛ فكلنا راحلون والموت حقّ، وأنه لابُدّ أن يكون قوياً كعادته.

فيشكره "جهاد" مرة أخرى على وقوفه ودعمه له، ويخبره أنهما بالطبع سيلتقيان مرة أخرى، ولكن في وقتٍ أفضل من هذا. ثم يصلان إلى المنزل ليخرج بعدها "جهاد" من سيارته ويشكره مرة أخرى، ويذهب "نادر" بعدها.

ثم يدخل جهاد إلى المنزل بعد يوم شاق جداً، ليدخل غرفته بعدها، ويُغلق الباب على نفسه بينما كانت أمه تطهو الطعام، وجنى نائمة في غرفتها من التعب والبكاء، ليفتح خزانة غرفته ويجد صور أبيه وصوره وهو صغير، ثم يُغط في بكاء عميق مُمسكاً على إحدى الوسائد التي على السرير، حتى لا يُصدر صوتاً منه، فهو لا يريد أن تهتز صورته أمام أُمه أو أخته ليبدو ضعيفاً أمامهما، بل يريد أن تكونا واثقتين، بأنهما أمام رجل قوي، وسُيحميهن من أي مكروه.

وبعد أن انتهى من بكائه أحسّ بالتعب، فشعر أن عيناه لم تعد تقوى على المواصلة في البكاء. لتستريح بعدها قليلاً من تعب ما رأته في اليومين الماضيين، ثم يستيقظ على صوت أمه وهي تدق الباب قائلةً:

-بُنـي هـل عُـدت؟ افـتح البـاب مـن فضـلك، الغـداء جـاهز لقـد رأيـت حذائك أمام الباب.

ليسـتيقظ بعـدها "جهـاد" ويفـتح البـاب لأمـه، ويقبّلهـا ويـدعوها للصـبر، وأن كـل شـيء مُقـدر، لتبكـي هـي بعـد ذلـك فـي حضـنه، وهي تقول له:

الحمد لله على كل حال يا بُني .

فتسـمع "جنـى" حـديثهما فتـأتي مسـرعة إلـى أخيهـا وتسـأله عـن والدها وماذا حلّ به؟

ليخبرهـا أن والـدها ذهـب إلـى الجنـة، وأنـه لـن يعـود وأننـا سـنلحقه يومـاً مـا، لتشـعر جنـى بعـدها بالبكـاء فتبكـي بصـوت عـالِ وتصرخ قائلةً:

-أريـد أبـي، أطلـب مـن اللـه أن يُرجِـع لـي أبـي، ألـم تقُـل أن اللـه يستجيب للصغار لأنهم أبرياء؟ ألم تقُل ذلك أم نسيت؟

فيخبرهـا: أن مـا قالـه صـحيح، لكنهـا نسـت أنـه أخبرهـا كـذلك أن المـؤمن يرضـى بالقـدر خيـره وشـره، ويشـرح لهـا ذلـك؛ فـالمؤمن الحـقّ لا يعنـي أن يـدعو اللـه، وإذا لـم يسـتجب لـه، معنـى ذلـك أن

اللـه لا يحبـه، فهـذا تفكيـرٌ خـاطئ، بـل يـدعو اللـه ويعلـم -علـم اليقين- إذا لـم يستجب لـه دعائـه؛ معنـى ذلـك أنـه خيـر لـه، ولـيس شـر وإن رآه الإنسـان شـر؛ كـالموت مـثلاً أو العقوبـة أو الضـرر وغيـر ذلـك، فهـي فـي الحقيقـة خيـر لـه، لأن أمـر المـؤمن كلـه خيـر وليس ذلك إلا المؤمن.

لـتفهم "جنـى" بعـد ذلـك مـا يقصـده أخوهـا، فتعتـذر عمّـا بـدر منهـا مـن قلـة أدب مـع اللـه فيقـول لهـا جهـاد: أنهـا أحسـنت فـي اعتـذارها للـه، وبـالطبع رب العـالمين سـيغفر لهـا، لتفـرح بعـد ذلـك وتنسـى مؤقتـاً مـوت أبيهـا ليُـداعبها ويُمازحهـا كعادتـه فتضـحك وأمهمـا تشاهد ذلك، وتضحك هي الأخرى عليهما قائلةً لهما:

-يا لكما من مشاكسين؛ واحد كبير والأخرى صغيرة.

ليرد عليها جهاد بقوله:

-أنا وهي يا أمي، ك (توم وجيري) ههه.

ليضـحك بعـدها الجميـع مـن قولـه، وكأنـه أراد بـذلك أن يُخفـف عنهمـا وطـأة الكـرب الـذي وقـع بهـم، حتـى ينسـوه، وخاصـة "جنـى" فهـي صـغيرة ولا تقـوى علـى الحـزن، فهـي بحاجـة لأن

تضحك وتلعب وتمرح؛ لا لأن تبكي، فهو لا يريد أن تعيش "جنى" ما عاشه هو في صغره من معاناة وتعب، فكان "جهاد" الأب الحقيقي لتلك العائلة، فقد تحمّل المسؤولية وهو في (الخامسة عشر) من عمره، بعد أن مرض أبوه وقعد بعدها طريح الفراش، ليوصيه أبوه؛ بأن يكون هو العائل للأسرة، فيتحمّل مسؤولية نفسه أولاً، ثم أسرته ليعمل في إحدى المحلات كحمّال للبضائع -كما ذكرنا- آنفاً ليظلّ هذا العمل هو المُعيل له، حتى بعد كِبَرِه، فقد كان يعمل ويدرس في ذات الوقت، لتقرر الأم أن تعمل هي الأخرى، وخاصة بعد ولادتها "لجنى" ليرفض "جهاد" عمل أمه، إلا أنها تُصرّ على ذلك، فما يكون بمقدوره إلا أن يرضى، فأمه عنيدة أحياناً.

فيظل "جهاد وأمه" يعملان حتى هذه اللحظة، وبعد وفاة والده سيكون عبئه أكبر هذه المرة، "فجهاد" قوي ذو عزيمة وإرادة، لا يحزن أمام من يعتمدون عليه أو يثقون به، فهو لا يريد أن يُريهم ضعفه حتى يشعروا أنهم بأمان وراحة عند اعتمادهم عليه، فيلجأ إلى أن يُخبئ ضعفه ووجُعه بداخله،

ليثبت للآخرين أن بإمكانه الاعتماد عليه والثقة به، فيجعلهم سعداء رغم حزنه الدفين الذي يكابده بداخله.

هكذا هم العظماء في كل زمان ومكان، لا يدعون الحزن يسيطر عليهم، ويبتسمون للغير، ويصنعون الابتسامة لغيرهم مُتَحديّن بذلك كل يأسٍ وحزنٍ ووجع يريد أن يُكبتهم ويجعلهم أسرى بين أيديهم، قائلين لكل تلك الأوجاع والآلام واليأس بأعلى صوت :

-"لن نجعل أحزاننا تطول، وسنبسط أيدينا لمن هم بحاجتنا، وسنبتسمُ أمامهم رغم المعارك التي نخوضها معكم، فنحن مؤمنون بأن كل شيء سيزول، ولن يبقى كما هو وأنتم ستزولون من حياتنا كما ستزول تلك الأشياء".

وبعد تناول الجميع الغداء، جلس "جهاد" أمام أسرته معلناً إياهم بخبر سيفرحهم جميعاً، وهم بحاجة إليه -خاصةً- في ظل هذا الوقت التعيس بالنسبة لهم قائلاً:

-من الآن وصاعداً، لا داعي للحزن، نعلم جيداً أن فراق والدنا شيء موجعٌ للغاية، لكن الآن وراء كل منّا عمل جاد،

ولابُدّ أن نكمله وكيف نكمله؟ إذا نحن لم نتحِد معاً ونكون يداً واحدةً في ذلك، لذلك من الآن جميعنا سيعمل، لأن ينجح وحتى يرضى والدنا في قبره، ويستريح لذلك أنتِ يا جنى، عليكِ أن تتعلمي وتدرسي وتلتحقي بالجامعة؛ لتُحققّي حُلم والدانا، لأن تكوني طبيبة ناجحة وتعالجي الجميع، أمّا أنتِ يا أمي، لابُدّ أن تستريحي من هذا التعب، وتحمّل المزيد من العناء، وتأخذي قِسطاً من الراحة في البيت، ولن تعملي في بيت السيدة "سارة" من الآن؛ لأني وجدت عمل: هيااااا، وهو يقولها بكل حبور وفرح.

ويخبرهما كذلك أنه أثناء مراسم الدفن اتصل به أحد العاملين في المشفى الذي سيعملُ فيها، حتى يُباشر في عمله، فيعتذر له لعدم مجيئه بسب وفاة والده ليُعزيه بعد ذلك هو الآخر، ثم يقول له أنه لا داعي لأن يحضر اليوم، وأنه بإمكانه المجيء غداً. فيباركان له؛ أمه وأخته ثم تتقدم جنى، وتوعد الجميع بأنها ستدرس حتى تُحقق حُلم والدها، فيفرحان ويبتسمان من كلامها، وبعد ذلك يجلسون الثلاثة ليشاهدوا التلفاز، ليأتي بعدها الليل فتذهب الأم لإعداد الطعام، ويتناولون جميعهم

العشاء، ثم يُودّعون بعضهما البعض، ويخلدون إلى النوم بعد يوم شاق ومُتعب للجميع.

.....

وبعد أن سمع "وائل" بخبر وفاة والد "جهاد" من أحد العاملين معه في المشفى، أحسّ أنه لابُدّ أن يُعزيه، لكن كيف وما هو السبيل في ذلك؟ ليقرر بعدها أنه في حال مجيئه بالغد سيقوم بالواجب وأكثر، ثم بعد ذلك يسرع في أداء عمله. لكنه يشعر بالحزن على "جهاد"؛ ذلك الرجل الذي أحبه وشعر بأنه رجل جدير بالثقة والصداقة.

ليقّرر بعدها الخروج من مشفاه، بعد يوم طويل وشاق من العمل، ويذهب إلى سيارته، وحارسه الشخصي يستقبله ليفتح له الباب، ثم يدخل بعدها.

وفجأة يوقف الحارس السيارة أمام المكان الذي يقف عنده، فيطلب من حارسه ألّا يقف بعد الآن في ذلك المكان، فيستغرب منه كيف له أن يتغير فجأة، وما الداعي لهذا التغيير المفاجئ؟

ظل ذلك الحارس يسأل نفسه، وأسئلة كثيرة تجوب بعقله ما السبب الذي جعله لا يريد أن يقف مُجدداً في ذلك المكان؟، وبينما كان الحارس مشغول بأسئلته تلك التي في مخيلته إذ "بوائل" يقول له: من فضلك، سأنزل هُنا قليلاً. فيستجيب لطلبه وهو مُندهشٌ ومُتفاجئ من ذلك المكان الذي أول مرة يشاهد سيده ينزل فيه، وهي مقبرة للموتى فيشعر بالخوف والكثير من الأسئلة تجوب بخاطره، ما الداعي لأن يُغير مكانه؟ وهل هذا هو مكانه الجديد الذي سيقف فيه كل يوم؟ أم ماذا؟ كثيرٌ من الأسئلة التي كانت تدور في عقل الحارس الشخصي؛ لينزل بعدها "وائل" من سيارته، ويذهب إلى قبر مسافته بعيدةً قليلاً من السيارة، فيجثم وائل على ركبتيه، وكأنه ينادي شخصاً ما ويبكي، نعم، يبكي فهذا القبر؛ هو قبر ابنه الذي لم يزوره منذ مُدة بل ونساه، أما ذلك المكان الذي كان يزوره كل يوم قبل عودته إلى المنزل، كان مكان أول لقاء لزوجته الخائنة التي تعرّف عليها آنذاك، لتخبره بأنها طبيبة مثله، وتبحث عن عمل. ليقرر بعدها أن تعمل معه في مشفاه، فكان يحب أن يجلس فيه ليتذكرها، وكأنه

بذلك يُعذّب نفسه بالاشتياق لها رغم خيانتها له، إلا أن الحب أعمى -كما يُقال -لا يعرف شيء.

لكن كلمات "جهاد"، هي من جعلت وائل يتغير تماماً، وينفضُ عنه كذب وعمى ذلك الحب ليمحيه من داخله، فهو لم يكن حب، بل كان وهمًا، وهذا ما أدركه من كلام "جهاد" الذي من أيقظه غفلته وسُباته العميق الذي جعله بعدها يقرر، أنها لا تستحقه؛ فابنه كان أولى بالحب والزيارة والتذّكر، لا لزوجته الخائنة.

هكذا كانت كلمات "جهاد" محل تغيير أبدي لوائل، مُعاهداً نفسه أمام قبر ابنه الصغير، بأنه سيتغير، وسوف يفكر بالزواج، وأنه سوف يتصدق من أجله، وسوف يعيد الابتسامة له التي لم يرها إلا لفترة قصيرة، فهو لم يشبع منه، وكان عمله يشغله عنه كثيراً، وكانت المشاكل التي تحدث بينه وبين زوجته جعلته أكثر انشغالاً عنه، فهو كان مقصرًا جداً في حقه ليترك الورود على قبره، ثم يوعده أن يزوره كل صباح بدلاً من المساء، وكأنه أراد بذلك أن

يُمحي الظلام من حياته دون رجعة له، ويجعلها مضيئة من جديد، وبعدها يأمر حارسه بأن هذا المكان سوف يكون مكانه الجديد وأن عليه أن يمر منه قبل الذهاب إلى العمل، - أي في الصباح- ويأمره كذلك بالذهاب إلى البيت فيشغّل الحارس السيارة ويمضوا جميعاً إلى المنزل.

لتستقبله أمه بالأحضان، وبعدها تأمر الخدم أن يقدموا الطعام، فيتناولون العشاء معاً، وأثناء تناولهما للعشاء؛ يطلب منها أن تبحث له عن عروسٍ جديدة، لتندهش أمه من الخبر فبعد أن يئست أمه من محاولاتها في إقناعه ولمدة طويلة من الزمن وبعد هذا كله، الآن قرر أخيراً الزواج كيف ومن الذي جعله يغير رأيه؟!

وكثيرٌ من الأسئلة التي كانت تسأل والدته نفسها، وهي مندهشة مما سمعته منه فتجيبه، وهي مسرورة من قراره بألّا عليه أن يقلق وأنها سُتبذل قُصارى جُهدها، وأن تبحث له عن زوجة صالحة ثم يُودّعها ليذهب إلى النوم وينام الجميع بعدها.

.....

وبعد يومٍ طويل من المشاهد المثيرة والغريبة في ذلك السجن، وتلك الأسئلة التي كانت تدور في عقولهم، قرروا بعدها أن يخلدوا للنوم، وذهب نادرٌ إلى سريره لينام كما ذهب الجميع، ونادر يفكر كيف يخرج من هذا السجن اللعين، وما الحيلة من الخروج؟ فكلام ذلك الرجل الذي يأتيه كل ليلة صحيح تماماً، فلابُدّ له أن يخرج من هذا السجن، لكن ما السبيل إلى ذلك؟ وما الطريق؟ ليأتي بعدها ذلك الرجل أمامه، ويحدثه بصوت هادئ وكأنه يوشوش إليه بوشوشة خفيفة قائلاً له:

-أهلًا نادر، ألم أقل لك أن كل شيء سيمضي كما أردت أنت؟! وأنت لن تتأذّى ما دمتُ أنا موجود.

فيخبره نادر، بأنه لا يريد أن تسير الأمور أكثر تعقيداً، ولا يريد أن يرى الدم مجدداً، وهو يرجوه أن يكُفَّ عن ذلك، لينصت ذلك الرجل لحديثه مُمسكاً بإحدى كتفيه قائلاً له:

-لا عليك يا صديقي، وأنه سيسير كل شيء كما نريد.

فيستغرب نادر من مناداته بصديقه، وهو ليس بصديق فيسأله كيف أنه أصبح صديقه وهو لا يعرفه؟! فيجيبه بأنه لا،

صديقه، لكنه منذ مدة طويلة، لكنه ينسى أحياناً فيستغرب منه نادر أكثر، فيريد أن يسأله بشكل أكبر عن هذه الصداقة التي يدعيّها، وإذ به يسمع أحد السجناء، كأنه يريد أن يستيقظ، لأنه سمع أصواتًا غريبة، ليسرع ذلك الرجل بضربه حتى يُسقطه أرضًا لكنه لم يمت فيعطيه مادةً مخدرة، حتى ينام فيخاف بعدها نادر ويرتعدّ ويقول له:

-لا تقتله من فضلك، فيكفي قتل وجرائم، أرجوك.

فيخبره بأنه لم يقتله وسيستيقظ في الصباح، ثم يودعه، ويذهب بعيداً عنه ليترك "نادر" في حيرته وأسئلته تلك، وهو خائف ومرتجف من الخوف من كل ما يجري حوله، ليغلبه النعاس بعدها ثم ينام.

ويصحو الجميع بعدها من نوم عميق ناموه في تلك الليلة، ثم يذهبوا بعدها لتناول الإفطار، ثم يستيقظ معهم ذلك الرجل الذي ضُرب البارحة، وهو لا يعي ما حدث وكأنه فقد ذاكرته ليسأل أحد السجناء عن وضعه قائلاً له:

-أين أنا؟ وماذا حدث لي حتى أصبحت في هذا السجن؟

فيضحك الجميع منه، ويطلبون منه بأنه لا داعي لأن يُمثل عليهم دور المجنون الأبله الذي لا يفقه شيء، فيُقسم لهم أنه لا يعرف ما الذي حدث له؟ وما الذي أتى به إلى السجن؟

ليوقف أحد السجناء الضحك، ثم يطلب منه أن يقول له ما اسمه؟ فيجيبه أنه حتى اسمه لا يعلم به، فيشك هذا السجين أنه ربما أُصيب بضربة قوية في رأسه؛ جعلته يفقدُ ذاكرته، لكنه كان يسأل نفسه ذلك السجين كيف ونحن لم نرَ البارحة أي عراك مع أحد؟، بل ما شاهدناه هو فقط مجرد قتل لأحد السجناء، فيسأل نفسه الكثير من الأسئلة، ليذهب بعدها إلى الشرطي الذي كان واقفاً أمام البوابة، حتى يُحقق في هذه الواقعة الجديدة، وبالطبع يأتي الشرطي ومعه مجموعة من رجال الشرطة وكبير الضباط معهم ليجدوا، أنه حقاً صاحبهم السجين فقد ذاكرته تماماً، ليتأكدوا كذلك من كاميرات المراقبة التي في السجن فيجدوا أنه لم يكن هناك أي أحد سواه مستيقظاً، وإنما هو من ضرب نفسه بإحدى تلك العمدان الحديدية لسريره، فيسقط بعدها فاقداً ذاكرته، فيجدوا أنه من تسببّ في الضرر لنفسه، ليأخذ نادر بعد ذلك نفس عميق، فهو

كان مستيقظًا مع ذلك الرجل حامداً لله أنه نجا هذه المرة، لكنه كان يسأل نفسه، كيف أن هذا الرجل يُخطط لكل شيء؟ حتى الكاميرا التي بداخل السجن، استطاع أن يتحكم بها والكثير من الأسئلة التي كانت تجوب في مَخيلة نادر لكنه ركن إلى الصمت، فهو لا يريد أن يقع في المشاكل، فيكفيهِ مُشكلته التي وقع فيها، فهو يريد الفرار منها.

وبينما كان الجميع يُحدقون في ذلك الرجل الفاقد لذاكرته بالاستغراب والعجب مما حدث له، وهم متسائلين في ذواتهم كيف حدث ذلك؟ وهم لا يسمعون شيئًا، وبعدها يأمر كبير الضباط ككل مرة حين تحدث مشكلة، بأن يلتزموا بالهدوء وعدم إثارة الفوضى، وأمر بعزل ذلك الفاقد لذاكرته في زنزانة خاصة، حتى لا يُسبب للجميع مشاكل، وأن يتم معالجته إن لزم الأمر، ثم ذهب بعدها، ومضوا معه أفراد الشرطة آخذين معهم السجين الفاقد لذاكرته ليغلق بعدها الشرطي السجن على الجميع، ثم يتفرقون جميعهم كلاً منهم إلى سريره الخاص.

فيأتي أحد السجناء إلى سرير نادر، ويطلب منه أن يجلس إلى جانبه، فيُرحبُ به نادر، ويسمح له بالجلوس في سريره ،ثم يطلب منه أن يخبره عن تهمته، فيخبره نادر بأنه متهمٌ بقتل زوجته، وهو لم يقتلها، ثم يسأله نادر عن تهمته هو، وما الذي أودى به إلى السجن؟ ليجيبه بأنه قتل أخاه، فيُصعق نادر من إجابته، وهو يقول له: أهو يمزح في ذلك؟ فيقول له أنه لا يمزح، وهو يستحق ذلك، وأنه ليس بنادمٍ على فعلته تلك معه، لأنه لم يساعده في شيء رغم أنه ضحّى من أجله الكثير، فيحزن نادر من ذلك الخبر، ويحاول أن يُصبّره، لكنه يقول له أنه لا داعي لأن يُصبره، فهو لم يعُد يكترث بشيء، فأمه كانت تحب أخاه أكثر منه، -حتى أبيه- كانا يفضلانه عليه، وهذا ما جعله أكثر حقداً عليه، ليقتل بعدها والديه الذين كانا يدعماه ويحباه أكثر منه، ليحاول نادر بعد ذلك أن ينهض من سريره، فيستأذن منه لأن يذهب إلى الحمام معتذراً لذلك السجين، أنه لا يريد أن يُكمل قصته، فيستغرب السجين من تصرفه، ثم يدعه يمضي تاركاً على وجه زميله السجين آثار الدهشة والاستغراب من فعله ذاك، والأسئلة تجول بخاطره

تجاه نادر، ولمَ تصرف وكأنه انزعج منه؟، ولا يريد أن يسمع منه بقية القصة، ليدخل بعدها نادر للحمام، ثم يبكي بصوت خافت حتى لا يسمعه أحد، وكأنه تذّكّر شيء ما كان يريد نسيناه، ليمسح دموعه بيديه ثم يخرج من الحمام مُبتسماً.

ويعود إلى سريره، ثم ينادي ذلك السجين الذي كان يحكي له قصته أن يأتي ليكمل حديثه، فيستغرب السجين منه أكثر، لكنه يتجاهل ذلك الاستغراب، ويكمل قصته فيأتي سجين آخر لينادي السجين الذي كان بجوار نادر قائلًا له:

-هل اتخذته صديقًا لك وتخليت عنّا؟، أم ماذا؟

ليجيبه السجين الذي كان بجوار نادر ساخراً بقوله:

-ولمَ لا؟ أظنه، فشخص مثلهُ ينفع أحياناً، هههه.

وكأنهم يسخرون من نادر.

ونادر كان متفرجاً عليهم، ولم يرد عليهم بأي شيء، فهو لا يريد مشاكل أكثر، فهمّه الوحيد هو الخروج من السجن،

ليشاركهما سجين آخر في تلك المسخرة التي صنعوها لنادر قائلاً بكل سخرية لنادر، وهو يأشر بإحدى أصابعه على نادر:

-لا أظن أن واحداً أخرق كهذا ينفع أن يكون صديقًا لكَ، فأنت قاتل محترف، أم هو قاتل غبي؟ ههه.

ليردف ثلاثتهم جميعهم بالضحك، وبعض السجناء يشاهدونهم من بعيد، ولم يقوموا بفعل أي شيء تجاه نادر، ثم يتركوا نادر وحده حزينًا كئيبًا بسب ما صنعوه من سخريه له. ليأتي الليل بحكاياته المخيفة، فيفرش أستاره على الجميع، فيغُط السجناء جميعهم بنوم عميق، ونادر واقعٌ في أفكاره وأسئلته وحزنه، ليأتي صديقه المُتخّفي ليمسك بكتفه قائلاً:

-لا عليك يا صديقي، كل أعمالهم هذه سيُجازون عليها، أنت فقط شاهد.

وقبل أن يذهب إليهم، يطلب منه نادر ألّا يقتلهم، وأن الجميع سيشكّون فيه لأنهم كانوا جميعهم على سريره يتحدثون، فيطلبُ منه ذلك المتخّفي ككل مرة أن يثق بما يقوم به.

ذهب إليهم، ورشّ على الثلاثة المادة المُخدّرة على وجوههم، وحتى لا يستيقظون ويعيقون عمله، ربط رؤوسهم جميعاً على أسررتهم بإحكام، حتى صارت عروق وجوههم بادية وواضحة، إلا واحداً منهم وضع يده على ذلك الحبل، حتى يُخيل للجميع بأنه هو الفاعل حقاً، ثم مضى كعادته غير آبه بأي شيء، ليصمت نادر هذه المرة، وكأنه هو الآخر أراد أن ينتقم منهم، ويدعه ليذهب دون أي عتاب، ثم يودّع نادر ليخلد للنوم تاركاً نادر ثقته في ذلك الرجل المتخفي في أن يحميه ككل مرة، ويخلد بعدها للنوم.

.....

تناول "جهاد" الإفطار، وقبل أن يذهب، ويودّع أمه طلب منها أن تبقى بالبيت، ولا تذهب إلى العمة "سارة" فهو سيتفاهم معها، وسيردّ كل التكاليف التي صرفتها بالمشفى، وعليها أن تثق به ككل مرة مُودعاً إياها ومُقبّلها على رأسها فتدعو له، ثم يمضي إلى مقر عمله الجديد. وقبل أن يمضي رأى أن ما زال هناك وقت للذهاب للعمل، فذهب إلى بيت العمة "سارة"،

وطرق الباب عليها لتفتح له بعد ذلك، وتعزيه في وفاة والدهم وبعد أن أنهت تعزيتها له، طلب منها "جهاد" أن تعطيه مهلة على الأقل شهراً واحدًا، ليدفع لها المال الذي أقرضته لوالدته قائلاً لها:

-أعتذر منك عمة على هذا الشيء، لكن أمي لم تعُد تقوى على العمل كما كان في السابق، فهي بحاجة للراحة.

لتشعر وقتها العمة "سارة" بالغضب من ذلك الأمر، لكنها قالت بأنها لن تمهله أكثر من أسبوع، وأنها بحاجة للمال معتقدة أنها بطلبها هذا سيجعله يغير رأيه ويدع والدته تعمل لديها.

فهكذا حال بعض البشر منّا، يستغل ظروف الآخرين؛ ليجعلهم عبيداً عنده ظانين أن العامل لديهم ستجبره ظروفه بأن يتخلى عن كل شيء، حتى يقع لقمة صائغة بيد مُستغليها، واهمين بذلك أنفسهم، ومتغافلين حقيقة أن هؤلاء العبيد الذين ينظرون إليهم بتلك النظرة: هم بشر مثلهم، لديهم كرامة وأمنيات

وأحلام، ومن حقهم أن ينعموا بالراحة والسعادة كما هم ينعمون.

وفي الوقت الذي يأتي شخص ما، ليقف ضد عبوديتهم للغير، ويمنعهم، بألا يستغلوهم أكثر من ذلك. عندها يحاولون أن يُبدوا أنيابهم المفترسة أمامهم، معتقدين أنهم بذلك سيخوفونهم وسيرعبونهم، لكنهم متناسين حقيقة أن الصبر -هو الآخر- له حدود، وقد ينفد أحياناً فلم يعد هناك طاقةٌ لتحمّل المزيد فيقفوا أمامهم، مهما كلّفهم الثمن غالياً ولو كان حياتهم.

وهكذا ما فعله جهاد مع العمة سارة، التي لم يضعف أمامها بل، وقف شامخاً معلناً تحديها، وأنه سيعطيها ثمن ذلك بعد أسبوع كما هي قالت، تاركاً إياها مذهولة من قوله ذاك وكيف لشخص كجهاد بإمكانه أن يدفع مبلغ كهذا في مدة قصيرة؟! وهو يعمل كحمّال وراتبه لا يساوي شيء، فهو بالكاد يصرف على نفسه، فمن أين سيأتي بهذا المبلغ؟

وهكذا كانت تفكر وتسأل نفسها قبل مغادرته من منزلها، ليمضي بعدها جهاد إلى موقف السيارات، ويصعد إلى

السيارة، ثم يأخذ نفساً عميقًا، وكأنه خاض معركة، ثم استراح ليفكر بعدها من أين سيجلبُ المال الذي وعدها بدفعه في الوقت المحدد؟ وبينما هو كذلك إذ وصل إلى وجهته، ثم نزل من الباص ودفع ثمن مقعده وتوجّه إلى عمله الجديد.

وبعد موقف جهاد معها اشتدت غيظًا منه، مُقررة الاتصال بأمه لتخبرها بما قام به ابنها معها، وبالفعل اتصلت على أمه، وأخبرتها بما فعل، وأنه وعدها بالدفع بعد أسبوع، سائلة إياها من أين له المال؟ وهل جهاد ورث شيء حتى أصبحوا أغنياء فجأة؟

فتعجز الأم عن الرد، فهي لا تعلم بأي شيء، لترد عليها: أن جهاد عند وعده ولن يخلف ذلك. فتزداد غيظاً من ردّها، فتغلق الهاتف على وجهها، وهي تشتم فيهم، وكأنها تريد أم جهاد أن تكون خادمة لها مدى الحياة، متناسية أنها إنسانة مثلها، تريد أن تعيش بكرامة، ولقد تعبت من ذلك الذُل، وسوء معاملتها في غالب الأوقات، فقد كانت تتحمّل من أجل أولادها، وكانت تُضحي بكل سعادتها حتى يعيشون حياة

كريمة، لكن أمثال العمة "سارة" لا يهدأ لهم بال إلا إذا شاهدوا غيرهم عبيداً بأيديهم، وعندما يشعرون أن عبيدهم بدأوا يستيقظون من سُبات عبوديتهم؛ يحاولون بشتّى الطرق حتى يرجعوهم إليهم.

دخل المشفى وألقى التحية على الجميع، والجميع يُحدق إليه ليتجه مباشرة إلى موظف الاستقبال، ليسأله إذا كان المدير موجود، فيخبره أنه لم يأتِ بعد، وأنه عليه الانتظار، فيجلس "جهاد" في صالة الانتظار، فيفتح هاتفه ليقرأ بعض الكتب الموجودة على هاتفه في حال مجيء المدير، وهكذا أراد أن يضيع وقته بما يُفيد.

وبينما هو مُنهمكٌ بالقراءة، إذ يجد رقم نادر وهو يرن له، ليحاول أن يطمأن عليه وعلى أخباره بعد حادثة وفاة والده، ليرد عليه "جهاد" وهو فرحٌ باتصاله، ليخبره أنه بخير وأنه بالعمل، فهو أول دوام له بالمشفى، فيطلب منه أن يُعطيه اسم المشفى، حتى يلتقي به هناك فيعطيه اسم المشفى، وقبل أن يغلق الهاتف، يطلب منه أن ينتظره بالمشفى ولا يغادره، لأنه

سيأتي إليه، فيُصرّ عليه جهاد بألّا يأتي ويُعطل أشغاله من أجله، فهو أصبح بخير، وأنهما بالطبع سيلتقيان، لكن في وقت لاحق، لكن نادر يصرُ على لقائه في تلك اللحظة.

فيخضع جهاد لطلبه، ويخبره أنه سينتظره في المشفى ريثما يأتي، فما هي إلا دقائق ليلمح بعدها وائل مُديره، لينهض من مقعده ذاهباً إليه بعد أن ألقى التحية فيشعر وائل بالارتياح عند رؤيته لجهاد، ويسلم عليه، ويطلب منه أن يصعد معه إلى مكتبه، والجميع منذهلٌ من هذا الذي يهتم به المدير و يبتسم، ولأول مرة بعد مدة طويلة يرون ابتسامته فالكل آنذاك مستغرباً من الموقف ليصعدا الاثنين بعدها إلى المكتب، ويدخل وائل، ثم جهاد بعده، ويطلب قهوة له ولجهاد، وبعدها يشرع وائل بتعزيته، ويطلب منه ألا يتردد في طلب أي شيء منه، وأن يعتبره صديقه، فيستغرب جهاد من كلامه ذاك، وكيف أنه يقول عنه صديقه؟ وهو لا يعرفه ولم يقدم له أي شيء، وكيف أنه يعامله بلطف؟ والكثير من الأسئلة التي كانت في عقل جهاد، ليسأله جهاد بكل جرأة دون خوف منه، فجهاد

شخص لا يخاف أحد -سوى الله- فقد تربّى على تلك القيم مُنذ الصغر من والديه، فيسأله قائلاً:

-لماذا تعاملني بلطف؟ وأنا لم أقدم لك أي شيء وتناديني بصديقك، أم أنه هناك شيء ما في عقلك تُريدني أن أنفذه؟، أتمنى أن أعرف ذلك من فضلك.

ليجيبه وائل وهو ليس مستغرب من سؤاله، وكأنه كان متوقعاً من شخص كجهاد، فأمثاله لا يُحبون الشفقة، أو أن يكونوا نقطة استغلال في أيدي غيرهم ليردف بجوابه قائلاً:

-كنت أتوقع منك ذلك السؤال، فأمثالك قلّة يا جهاد.

كأنه بجوابه زاد الأمر تعقيداً، ولم يفهم شيئًا ليقول له جهاد أن يشرح له أكثر، فهو لم يفهم ما يقصده ليبدأ وائل بشرح إجابته له، ولكن بأسلوب فلسفي كما فعل معه جهاد قائلاً له:

-أنت كذلك ناديتني البارحة بصديقك أليس كذلك؟

-نعم، ولكن ما أقصده هو أن قولي عام ولم أقصد به شيء آخر.

-ولكن يا صديقي، إن الإنسان منّا أحياناً قد يجد شخص ما يدلّه على الطريق، الطريق الذي لطالما كان يبحث عنه، وكان تائهٌ في إيجاده، فيلجأ للقريب والبعيد علّهم يدلّونه على ذلك الطريق الذي يبحث عنه، فيجد الأكثرية قد تخلّوا عنه، والبعض منهم يتركه ليتعذّب وحده وهم لا يقصدون إيذائه، وإنما لأنهم ليس بيدهم شيء، فيلجؤون للدعاء والتضرع كأمهاتنا أو آبائنا مثلاً، فهم ليسوا بأيديهم سوى الدعاء لنا، ظانين بذلك أنهم سيدفعون عنّا كل شيء حتى الموت، فلا أقصد بذلك التقليل من شأنهم ودورهم، ولكن ما أقصده أن أمهاتنا وآباءنا -أحياناً- لا يفهموا ما نعيشه كثيراً، أو ما يدور بخواطرنا، أو ربُما في غالب الأحيان يفهموننا، ولكنهم يدعونا لنجرب ذلك، ونعيشه كما عاشوا وجرّبوا، وكأنهم يريدن بذلك أن نصبح أقوى لنواجه هذه الحياة، لكن الحقيقة يا صديقي، نحن بحاجة إلى روحٍ تفهمنا، وبالفعل قد نجد على الجانب الآخر آباء وأمهات يقفون بجانب أبنائهم كثيراً في كل شيء، ويفهمون ما يدور بخواطر أبنائهم، ويُحاولون بكل ما أُوتوا من قوة، أن يكونوا بجانبهم مهما كانت الظروف، وقد يكون

هـذا الجانـب فيـه إفـراط وتفـريط، لأن فـي الحقيقـة عنـدما يكـون الولـد مُـدلّلاً للغايـة ويجـد كـل مـا يطلبـه أمـام يديـه، يشـعرُ وقتهـا بـأن كـل شـيء سـهل، وأن مـا سـيطلبه سُـينفذ بالفعـل، وهـذا خطـأ فـادحُ يقـع فيـه الوالـدان، فـإذا لـم يـدركوا تلـك المشـكلة ويعالجوهـا قبـل فـوات الأوان، فقـد تكـون النتـائج سـلبية علـى الجميـع، وقـد نجـد علـى الجانـب الآخـر أمهـات وآبـاء يُقصّـرون فـي حـق أبنـائهم فيظلمـونهم كثيـراً، وكـأنهم خُلقـوا ليعـذبوهم، فهـؤلاء كثيـرٌ جـداً فـي زماننـا، فهـم يعتقـدون -هـؤلاء الآبـاء والأمهـات- أنـه عنـدما يُنجبـون ابـنهم ويُوجدونـه بهـذه الحيـاة، عنـدها ينتهـى دورهـم لـه، تـاركين إيـاه يعـيش حيـاة مـن المعانـاة والتعـب، وكـأنهم يفهمـون أن دورهـم -فقـط- أن يُنجبـوا، والبـاقي يتحمّلـه الطفـل، متغـافلين حقيقـة أن الأبـوة والأمومـة؛ مـا هـي إلا مسـؤولية عُظمـى، مـن ولادة الطفـل إلـى أن يمـوت، وأن التربيـة والانجـاب ليسـت كافيـة لـه، وإنمـا لابـد مـن رعايـة واهتمـام، حتـى يُـدركوا تمامـاً أن ابـنهم أصبح مُكتفياً بذاته ومُعتمداً على نفسه.

-وهـؤلاء هـم قلّـة يـا جهـاد، أعلـم أننـي انغمسـت كثيـراً فـي الحـديث عـن الوالـدين، ولكـن الحقيقـة التـي لمسـتها: أن والـدتي رغـم أنهـا

كانت معي، وتحاول أن تكون بجانبي دوماً إلا أنها لم تستطع أن تفهم أشياء كثيرة بداخلي، أعلم أن قلب الأم هو دليلها، لكن المشكلة أحياناً في هذا، فهي عندما تشعر أن شيء ما حدث لي أُحاول جاهداً أن أُخفيه عنها، حتى لا تضيق أكثر وتحزن، وليس لأني لا أحب مشاركة ذلك معها، لكني لا أريد أن أجعلها قِلّة عليّ، فما وجدته يا صديقي، هو أن أمي كانت قريبة مني كثيراً، لكنها لم تفهم ما بيّ من حزنٍ أو ألم، أو ربُما كانت تفهم، لكنها لا تود أن تضغط عليّ أكثر؛ حتى لا أنفجر فجأة عليها، لكنك يا صديقي، أنت الوحيد الذي فهمت ما كان يجول بخاطري، رغم أننا لا نعرف بعض، ولأول مرة نلتقي، إلا أن الوجع ربما يكون مشتركٌ بيننا؛ ففهمت ما بداخلي دون أن ألفُظ أي عبارة، ورغم محاولة قُرب الكثيرين مني بأن يكونوا بجانبي، لكنني لم أشعر يوماً بالارتياح كما شعرته معك يا صديقي، ربما كما قلت لك سابقاً، أن وجعنا كان واحدًا، وهو الذي جعلنا نتشابه لتفهمني بعدها، أو ربُما لأنك رجلٌ حقيقي في زمن كثُرت فيه الأقنعة، وهذا الذي جعلني أُقرر أن تكون صديقاً لي، فأمثالك يا جهاد نادرٌ جداً،

فأنت الوحيد الذي دلّني على الطريق الصحيح بعدما كنت ضائع وتائه في إيجاده، فشكراً لكَ من الأعماق أيها الصديق الوفيّ.

فيحضنه وائل، وجهاد مستغرباً من فعله ذلك وبعدها يردفُ جهاد قائلاً:

-لا داعي لأن تشكرني، لم أصنع شيء كل ما قمتُ به هو النصيحة، وأتمنى أنك وجدت ذلك في كلماتي.

فيترك وائل حضنه قائلاً:

-نعم يا صديقي الوفيّ، لقد وجدته.

ثم يشكره مرة أخرى على نصائحه، ويطلب منه ألا يتردد في أي طلب منه، ليسرع جهاد بالتفكير بأمر المال الذي يجب عليه دفعه ليُخلص والدته من عبودية "العمة سارة"، لكنه كان مُحرجٌ بأن يفكر "وائل" بأن "جهاد" شخص يستغل المواقف من أجل مصالحه، فرفض الفكرة من عقله وألغاها، وهكذا هم النُبلاء يعزُّ عليهم أنفسهم، ويأبون أن تكون ذليلة أمام أحد، حتى وإن كانوا في أمسّ الحاجة لها.

ليقول له بعد ذلك: أنه لا يوجد شيء، فقط ما يريده هو أن يعمل بالمشفى، ويأخذ راتب لا بأس به على ذلك، ليقول له وائل: أن طلبه بسيط، ومن هذه اللحظة يُحق له أن يُداوم، لكن هذا اليوم يعتبره إجازة له، لأن عائلته بحاجته، فيحاول أن يرفض جهاد، لكن إصرار وائل يجعله يرضخ لطلبه، وقبل خروجه من المكتب يُخرج وائل عقد العمل؛ ليوقع بعدها جهاد عليه، وقد أضاف له راتب مُغري فيفرح جهاد بذلك، ويمضي من مكتبه إلى عمله، وقبل أن يخرج من مكتبه يجد اتصال من نادر عليه، فيستأذن من مديره أن يخرج حتى يرد عليه فيأذن له، ويشاهد وائل نادر لأول مرة من نافذة مكتبه الزجاجي، وهو يلّوح بيده لجهاد، فيشعر بشيء غريب تجاهه، لكن يُحاول تجاهل ذلك الشعور ويُركّز على ملامح جهاد وهو فرحاً بقدومه، فينتاب وائل الفضول، ليخرج من مكتبه ليرى من هذا الرجل الذي يبتسم له جهاد؟ وكأنه أحسّ بالغيرة منه فيقف على باب مكتبه، وينظر إليهما فقد كانا على بُعد مسافة لا بأس بها من مكتبه، ليلتقي بعدها بنادر، ويتبادلان الأحضان، ليقول له جهاد: أن هذا مكان عمله فيفرح نادر

لفرح جهاد، فيطلب منه أن يخرجا، وقبل ذهابهما ناداه وائل قائلاً له: من فضلك جهاد تعال، ونادر ينظر إليه، وهو ينادي جهاد فيقول جهاد لنادر: أن ينتظره قليلاً.

لينظر ماذا يريد مديره؟ ريثما يعود، وعندها كان نادر ينظر إلى وائل بقلقٍ وحيرة، فهو أحسّ أنه يُكنّ له شيء غريب، ليصل جهاد إلى باب مكتبه ثم يتحدثا ليسأله وائل: من هذا الشخص؟، فيجيبه: بأنه صديق طفولته "نادر" ، فيستغرب وائل منه، فكيف بشخص كجهاد يعرف رجل كنادر؟

فهو من مظهره يبدو غريبًا وأبله وغير مهتم بنفسه، ليطلب منه أن يتعرف عليه إذ لا يوجد لديه مانع، فيستأذن منه أن يذهب إلى نادر أولاً، فربما نادر لا يريد لقائه، ف جهاد لا يُحب أن يُحرج أحداً؛ (فهكذا هم النُبّلاء لا يُحبون أن يُحرجوا أنفسهم أو يُحرجوا أحداً معهم)، فيصل جهاد إلى نادر مُخبرًا إياه بأن المدير يريد أن يلتقي به، إذ لا يُمانع في ذلك، وأنه إذا لا يريد ذلك سيتصرف جهاد لحلّ الموقف، فإذا بنادر يُوافق على مقابلته، ويذهب معه وكل هذا يحدث أمام عين وائل،

فيصلا الاثنين إلى بوابة مكتبه، فيطلب منهما الدخول، ليطلب بعدها قهوة لنادر، فيطلب وائل منه: بأن يعرّفه عن نفسه، إذا لا يُمانع في ذلك فيعرّفه عن نفسه، ويخبره بأنه صديق "جهاد" المقرب منذ الطفولة، وأنه بسبب موت والده انتقل إلى حي آخر، لكنهما التقيا بالصُدفة في إحدى المطاعم، وكأن القدر أراد أن يلتقيا بعد مُدة من الزمن، فيسمع وائل قصتهما ويتأثر بها، وكأنه يُغبطهما لتلك الصداقة، فهو محظوظ جداً لأن صديقه جهاد ليردف وائل بقوله له:

-أنني أغبطكما على هذه الصُحبة، وأتمنى أن أكون ثالثاً بينكما إذ لا تمانعا من فضلكما.

فيستغربا الاثنين نادر وجهاد، ويشعرا بالتردّد والدهشة في نفس الوقت، فكيف لرجل لا يعرفان عنه أي شيء يريد أن يكون صديقًا لهما؟، فيبدأ نادر بالتحدث معه قائلاً:

-ولماذا تريد صُحبتنا هل هناك شيء في عقلك أم ماذا؟

ليجيبه وائل بقوله: أنه أحبّ الوفاء الذي بينهما، ورغم السنين التي باعدت بينهما إلا أنهما لم ينسيا بعض، وظلاّ صديقان،

ليـردّ عليـه جهـاد أنهمـا الآن يلتقيـان بعـد مـدة مـن الـزمن. فيرجـوهم مـرة أخـرى بـأن يكـون صـديقهما، لأنـه لا يوجـد لديـه أصـدقاء، وهـو يشـعر بالوحـدة رغـم أنـه ثـري وكـل مـن حولـه منـافقون لا يحبونـه إلا مـن أجـل المـال، ولـيس لشخصـه وهـو يعشـق الوفـاء ومـن ينهجـون نهجـه، فـيحن جهـاد لكلامـه ويوافـق، فيمـا نـادر يتـردّد قلـيلاً لكنـه بعـد أن يـرى إلحاحـه وموافقـة جهـاد يُوافـق هـو الآخـر علـى صـحبته، وبعـد موافقـة الجميـع علـى صـحبته يـدعوهما لتنـاول العشـاء معـه فـي منزلـه، لكنهمـا يرفضـان فـي البدايـة، وبعـد إصـرار طويـل مـن وائـل يوافقـان، ويطلـب منهمـا أن ينتظـراه ريثمـا ينتهـي مـن عملـه، ليخرجـا بعـدها ويبـدأ نـادر فـي أسـئلته لجهـاد، ويسـأله لمـاذا وائـل يريـد صُـحبتهما؟ ويظـل جهـاد هـو الآخـر حـائرًا فـي تلـك المسـألة، ولا يُجيب عنها، ليشرع نادر بعدها في تغيير الموضوع قائلاً له:

-دعنـا ننسـى موضـوعه الآن ولكـن حـدّثني عنـك، كـم اشـتقت لـك يا رجل وكيف عائلتك؟، دعني أتعرف عليهم، من فضلك.

فيخبره أنه بخير، وأنه سيكون مسروراً عند قدومه لمنزله وسيجعله يتعرف عليهم، لكن في وقت لاحق، وعندها يتصل على والدته ويخبرها بأنه سيتأخر وألّا تقلق عليه، وبينما كان يتبادلان أطراف الحديث، إذا ب "وائل" يخرج من مكتبه قادماً إليهما ليصل إليهما، ويطلب منهما أن يصعدا معه لركوب السيارة، فيصعدوا الثلاثة جميعهم والهدوء كان يعمّ الأجواء، فيشرع وائل بالحديث فيسألهم ببعض الأمور العامة، فيجيبونه.

قاصداً بذلك أن يكسر الحواجز التي قد تكون بينهم، وبعدها يصلون إلى منزل "وائل" ثم يدخلون منزله، وترحب بهم أمه، وتطلب من الخدم أن يقدموا العشاء.

ويتبادلون أطراف الحديث وكان الجميع يضحك ومسرور للغاية، ليشعر بعدها نادر بالتعب والإعياء، فيستأذن منهم فهو قد تأخر على زوجته، وقبل أن يذهب طلب منه جهاد أن ينتظره فهو تأخر كذلك، ليوصله نادر إلى منزله، ثم يذهب هو إلى منزله.

وهكذا تمر الأيام فتصبح علاقة جهاد ونادر ووائل قوية، لكن نادر في غالب الأحيان لا يشارك وائل بعض أسراره فهو لا يثق به كجهاد، رغم أنه صديقه؛ فصداقتهم دامت لأكثر من عشرين سنة، فكانوا يلتقون ما بين تارة وتارة، وأحياناً في منزل وائل.

وهكذا ظلّوا على تلك الحال، وأصبح نادر هو أكثر من يختفي في تلك الصداقة التي كانت تجمعهم الثلاثة، فكان ينشغل كثيراً بأعماله، ويعتذر في غالب لقاءتهم تلك إلى أن تعودّا جهاد ووائل على غيابه، وظلّت علاقتهم قوية، أقوى بكثير من صداقته مع نادر، وارتفع مُرتبّه بشكل كبير، ودفع كل ديونه التي كانت عليه، ودخلت أخته جنى الجامعة.

إلى أن أتى يوم، واختفى جهاد هو الآخر من حياة وائل فجأة، ليحاول وائل هو الآخر يفتشّ عنه إلى أن يأس من محاولاته، واقتنع بأنه لن يعود مرة أخرى، فرُبما سافر، أو وجد له عمل أفضل من عمله، مُتمنياً له كل التوفيق والنجاح.

هكذا سرد وائل كل تفاصيل ذكرياته مع جهاد في مُخيلته فكأنه يراها أمامه، ساقطاً من عينه بعض الدموع على فُراقه، مُتمنياً أنه لو كان بإمكانه أن يراه ويطمأن عليه، فقد اشتاق له كثيراً، ليقرر بعدها العودة إلى منزله ليرى أمه وزوجته وابنه الصغير "جهاد" الذي اسماه باسمه مُعّبراً بذلك عن وفائِه لصُحبته ومُخلّدًا ذكراه في حياته تلك.

.....

استيقظ الرجل السجين ليجد يده مربوطة بالحبل ليتتّبع أثره، فيرى نفسه أنه قد ربط أصدقائه السجناء به، وأنه قد قتلهم ليصعق من المنظر وكذلك الجميع، فيذهب أحد السجناء بمناداة الشرطة فيتحقّقون من الأمر، فيجدون أنه هو القاتل، وبعد أن تأكدوا من بصماته ليصرخ بصوته عالياً وهو يقول:

لست أنا، إنما هو نادر لست أنا، صدقوني، وبعدها يعتقلوه ويُودعوه بالسجن الانفرادي، والجميع ينظر لنادر بنظرات الاستغراب والدهشة، كيف هذا؟ وبصماته لم تكن موجودة، ونادر يحسّ أنه تورطّ هذه المرة فكيف السبيل إلى النجاة؟

فيطلب كبير الضباط من الشرطة أن يعزلوا نادر في السجن الانفرادي، فقد يكون كلام السجين ذاك صحيح، فيدخل نادر السجن الانفرادي، فيشعر بالضيق إلى أن يسدل الليل ستاره عليه، ولكن هذه المرةّ سيكون مُختلفاً، وقبل أن ينام إذ أحسّ بوجود شخص ما يأتي إليه، وإذ به ذلك الرجل ذاته الذي يرافقه طيلة حياته، فيتذّكر نادر أنه رآه في صغره عندما كانت أمه تعذّبه، وتعزله في غرفة مظلمة كل ليلة، ظناً منها أنها بذلك تعاقبه، وهي لا تعلم أنها ستترك جرحًا عميقًا بداخله؛ ليصبح ذلك الرجل كظله فهو الذي أبلغ الشرطة عن نفسه، ظناً منه أنه سيختفي منه، ولن يعود إليه مرة أخرى.

لكن محاولاته باءت بالفشل ليدخل السجن بعدها، ويأتي إليه مُجدداً، ويرتكب الجرائم بمساعدة أحد أفراد الشرطة الذي يعمل في كاميرا المراقبة، بعد أن أخبره برغبته في القتل، وأعطاه مبلغ من المال؛ ليثبت أنه بريء من كل التهم الموكلة إليه، "فنادر" ورث كثير من الأموال بعد موت أمه، فهو الذي قتلها ،وهو في عمر (الثامنة عشر)، بعد أن ضاق ذرعاً من تعذيبها له، ثم يتزوج من هدى ويدوم زواجهما لسنتين، إلى

أن يأتي اليوم الذي يقتلها عند معرفتها لسره، وهكذا فعل مع جهاد، رغم علمه بأنه منفصم الشخصية منذ صغره، ليأتي تلك الليلة المشؤومة عند زيارته له فيقتله ويقتل أسرته، فيختفي من حياتهم.

هكذا ظلّ يسرد حكايات جرائمه التي ارتكبها في حق غيره وبعدها أخذ ورقة وقلم وكتب فيها جميع اعترافاته مُختتماً فيها بقولهِ:

-لم أكن أود أن تسير الأمور إلى هذا المنعطف المنغلق، ولكن بسبب خطأ واحد فقط؛ هو الذي جعل مني وحشًا آخر، لو لم تكن أمي وقتها تُعاملني بقسوة، وتُعزلني في غرفة ظلماء كل ليلة لأعيش الخوف بكل حالاته، لما كنت الآن هنا، ولما قتلت أُناساً أبرياء كجهاد؛ ذلك الرجل الذي لم أستطع أن أكون مثله، فهو الوحيد الذي كلمّا أتذكرهُ أشعر بالكُره لذاتي.

ليبدأ بعدها برمي الورقة من أمامه ويطعن نفسه عدة طعنات علّه يستريح من ذلك الدوار الذي يرافقه منذ صِغره، وهو يصرخ بصوتٍ عالٍ:

-خطأ واحد جعل مني وحشًا، خطأ واحد.

تاركاً الرسالة مرّمية على الأرض ليقرأها الجميع ويتعظّ بعدم إنتاج نُسخٍ أخرى من ذلك الخطأ.

ASRUD
للنشر الالكتروني

خطأ واحد

قد يُخيل إلينا أننا على صواب وأن المساحة ما بين
الضوء والظلام إزبة جداً، ولكن الفاجعة هي ما بين
ملاحم الذكريات ومطرقة الأمنيات، وحتى ما يُدعى
بالسلام الداخلي الذي ننشده لذواتنا ستصرخ فيه آهاتنا
بأن يكفينا ما رأيناه منذ الصغر، ورغم التعثر في
الطرقات نسير إلى المجهول إلى حيث ما رسمنا فيه لوحة
حياتنا وهكذا نبقى أما أسرى أو موتى دون شعور.

أسرُد
ASRUD
للنشر الالكتروني

تصميم الغلاف
رانيا السفوت